من القصص العالمي

الحرب والسلم	ليو تولستوي
الجريمة والعقاب	فيدور دستوفسكي
المفتش العام	نيكولاي غوغول
الرعاع	جون جالزورذي
فتاة أورليان	فريدريك شيلر
الرجل الذي ملكته	جيوفاني يابيني
الغيرة	أندريه توريه

ترجمة: سمير عبده

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

من القصص العالمي

الحرب والسلم ليو تولستوي

الجريمة والعقاب فيدور دستوفسكي

المفتش العام نيكولاي غوغول

الرعاع جون جالزورذي

فتاة أورليان فريدريك شيللر

الرجل الذي ملكته جيوفاني پابيني

الغيرة أندريه توريه

ترجمة: سمير عبده

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ١٩٨١م

مقدمة

ظهرت مواضيع هذا الكتاب بشكل تكثيف Condensation للقصص من مجموعة كتب الريدرز دايجست الفصلية ، وذلك خلال اعوام متفاوتة ، وقمت بنشر ترجمة لبعضها في مجلة الجندي الدمشقية في اواخر الخمسينات . وبما انه مضى جيلان على نشر بعضها ، فان الكثير من شبابنا اليوم لم تتح لهم قراءة هذه النصوص الروائية كاملة وباللغة العربية لامور عدة ، ولذلك مضينا لنشرها بشكلها المكثف في كتاب يضم سبع روايات قصصية . ووضعنا مقدمة لكل فصل تناولنا فيها تعريفا بالكاتب وبعمله الروائي .

ولا شك في ان القارىء منا حين يقرأ ، انما يتقمص الشخصيات التي يقرأ عنها ، واحب الشخصيات الينا تلك التي تشبهنا . ونحن بقراءتها نعيش فيها بالخيال كما نعيش في الحياة الواقعة . وما امتع ان تجري الحوادث في القصة على مثل الاسلوب الذي نود ان تجري عليه بنا الحياة البحتة ، اننا بذلك نحقق في الاحلام اليقظى آمالا لا تتحقق في اليقظة غير الحالمة ، أو نبلغ اهدافا لا نبلغها في حالة الصحو . وهنا اللذة الكبرى ولو كاذبة ، وهنا السعادة الكبرى ولو على سكرة تتبعها افاقة .

ولغتنا العربية لا غنى لها عن الترجمة اذا كان لا مندوحة عنها ابقاء على الصلة بتيارات الفكر في الغرب .

وقد حفلت الآداب العالمية بقصص ذات نزعات ومرامي شتى ، فتولستوي في قصته ((الحرب والسلم)) بحث مشكلة انسانية خالدة ، ودستوفسكي برع في رسم النفس البشرية في رائعته ((الجريمة والعقاب)) ، وغوغول بأسلوبه الساخر صور مهازل الحكم الاقطاعي في ((المفتش العام)) ، مسرحيته ، وبابيني اعطانا نموذجا فريدا لابطاله المبهمين في ((الرجل الذي وشيللر في ((فتاة أورليان)) مثل التفاني في سبيل الوطن بشخص جان بطلة مسرحيته ، وبابيني اعطانا نموذجا فريدا لابطاله المبهمين في ((الرجل الذي ملكته)) ، ومثل لنا في الاخير توربيه الصراع المرير الذي ينشأ بين نفسين حين تشيخ احداهما وتتصابى الثانية في صورة الغيرة بين الام والابنة على انتزاع قلب انسان فان .

سمير عبده

تولستوي
الكاتب الانساني

يعجز القلم ان يسطر عن تولستوي الاديب او تولستوي العالم والكاتب والكونت والوطني والمؤرخ ، بل ان القلم لا يوفي الكاتب حق قدره اذا اطلقنا عليه هذه المرادفات فقط ، فقد كان من اعظم الكتاب العالميين الذين انجبتهم الانسانية خلال قرون عديدة ، وكما قال تشيخوف : (ليس برجل لو قسناه بمقاييس يومنا بل هو رجل فوق العادة ، انه كوكب متألق) . وسجلت اعمال تولستوي وقصصه الخالدة (الحرب والسلم) و (آنا كارنينا) و (البعث) وقصصه ومسرحياته المشبعة بالحياة الواقعية الحقة ، ومقالاته الانتقادية الحادة ومقالاته السياسية ـ كل هذه الاعمال الادبية الرائعة سجلت مرحلة جديدة في تطور الادب العالمي . وفي اثناء دراساته للعالم المعاصر وتفكيره العميق في مصير الجنس البشري ـ وجه تولستوي اهتماما خاصا للامم الشرقية وشعر بارتياح عميق حينما كان يدرس الفلسفة الهندية والفلسفة العربية ، والى جانب التعاليم الدينية والفلسفية اولى تولستوي اهتماما كبيرا للادب والملاحم وخصوصا الادب الشعبي ، وقد كانت له مراسلات مع غاندي ومحمد عبده وغيرهما ممن خدموا أوطانهم والانسانية خدمات طيبة .

ظل تولستوي ردحا من الزمن ينتقد الكنيسة ويريد ان يرجع بها الى بساطة الدين في عصره الاول ، وان تتخذ الكنيسة تلك الآيات البينات من الانجيل على حرفيتها دون تأويل او تفسير ، ودون ملاءمة بينها وبين الحياة الحاضرة وتشعبها ، أو بعبارة أخرى اراد ان تنزل الكنيسة عن مركزها وسلطانها وسيطرتها في الدولة منذ قرون . وكانت حملته شديدة على الطقوس الدينية ، ولكنه ظل مع ذلك محافظا على صلواته وصيامه ، ويوجد الآن في المتحف الحكومي لتاريخ الديانة والالحاد في لينينغراد ، لوحة تصور تولستوي في الجحيم ، وقد استحضرت من كنيسة بقرب تازوفو بمنطقة كورسك ، كما انه نوقشت مسألة القبض عليه والزج به في الدير ثلاث مرات في الدوائر العلية بحكومة روسيا القيصرية .

* * *

ان « الحرب والسلم » ليست موضوع قصة بحد ذاته ينطوي على مجرى حياة بعض الاسر الكبيرة ، بقدر ما هي تصوير لتيار أمة في فترة عصيبة من الفترات وفي أزمة من الازمات ، التي

تنتاب الامم فتقضي عليها بالحياة او الموت . وليس الموت في الامم كموت الافراد ، معنـاه العدم والفناء ، وانما معناه وقف الحياة فيها سنوات أو قرون بحيث لا تقوم بدورها في الحضـارة بالرغم من كثرة أفرادها وجدهم في العمل .

انها قصة انسانية خالدة اختار تولستوي مسرحا لها قارة بأسرها ، واختار زمنا لهـا هو احفل حقب التاريخ الروسي بالاحداث ، وأعني بها حقبة كفاحها الطويل ضد نابليون .. فجاءت القصة أضخم وأروع عمل فني منذ الياذة هوميروس ، حتى لقد اجمع العالم على أنها اعظم رواية في جميع العصور ، بل انها تشغل المرتبة الاولى بين الروايات التي اعيد طبعها ، وهنـاك سبعة ملايين وخمسمئة الف نسخة لهذه القصة في ثلاثة عشرة لغة محلية مطبوعة بالاتحاد السوفييتي.

تلك هي قصة الحرب والسلم كتبها تولستوي في خمس سنوات كاملة ، ونشر القسم الاول من هذه القصة العظيمة الطويلة سنة ١٨٦٥ وسماها في ذلك الحين باسم (سنة ١٨٠٥) ونشر القسم الاخير في تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ واختار لها نهائيا اسم (الحرب والسلم) وأخرجها للناس في ستة مجلدات يربو عدد صفحاتها على ألف وخمسمائة ، ويزيد عدد أشخاصها علـى الثلاثين ، ولا تسلك القصة النسق الروائي المعروف من حيث بسط الموضوع ، ثم الوصول الى النتيجة بل هي تسلك اسلوبا اقرب الى الملاحم الشعرية التي ابدعها خيال الاقدمين أي كما فعل هوميروس في الالياذة والاوديسة .

ومن مميزات تولستوي في تلك القصة العظيمة انه اقتطع الاشخاص من صور حية تعيش بجانبه من أفراد أسرته وأقاربه ورجال طبقته الذين يخالطهم ، بل من نفسه ، فصورة بيير مثلا فيها الكثير من صورة تولستوي والفتاة ناتاشا الصغيرة المرحة هي على الاغلب صورة لتانيا أخت زوجته .

وما الحرب والسلم فيها الا بمثابة الاطـار للقصة او المسرح للدراما .. المسرح الشاسع الذي يتحرك عليه أشخاص لا عداد لهم ، يدعوننا لمشاطرتهم مصائرهم وأفراحهم واتراحهم ، فلا نملك الا الاستجابة لدعوتهم وتتبع حيواتهم بكل مـا في طبيعة الانسان مـن تشوق وفضول .

الحرب والسلم

إن الحرب في قصة تولستوي هي حرب الفناء بين روسيا وفرنسا أيام نابليون ، وهي تتابع في فترتين ، الفترة الاولى تبدأ سنة ١٨٠٥ وفيها نرى الروس خارج بلادهم يحاربون — بالاشتراك مع حلفائهم النمسويين — عدوا مشتركا هو نابليون ، فيهزمون هزائم مروعة ، في سلسلة من المعارك الطاحنة ، ويضطرون الى التهادن وعقد صلح مع الطاغية الفرنسي ، وهذه الفترة هي التمهيد لحوادث القصة • أما الفترة الثانية، الحافلة بأخطر أحداث التاريخ والقصة ، فهي تبدأ سنة ١٨١٢ ، حين تنشب الحرب من جديد بين روسيا ونابليون ، فيغزو الفرنسيون روسيا منتصرين • وفي بورودينو تحل الازمة الحاسمة التي ترجح احدى الكفتين • وهنا نرى العراك محتدما بأقصى شدة ، الروس يحاربون ببسالة رائعة بغية صد جيش نابليون وانقاذ موسكو •• ولكن نابليون لم يصد ، وموسكو لم تنقذ ، ورغم هذا فطبقا لتقدير تولستوي ، كانت بورودينو نصرا محققا للروس ، فبعدها أضحى الجيش الفرنسي المنتصر ، كوحش جريح ظل يطارد فريسته حتى نالها ، وتناولها بين فكيه ، ولكن الدم كان يقطر من شدقيه ، والموت كان مآله • ذلك انه لأمر حاسم ، بدأ الفرنسيون بعد نصرهم يرتدون ، واستغل الروس الارتداد — وكان الشتاء حليفهم — فاذا بالارتداد ينقلب على نابليون بأكبر كارثة عسكرية عرفها التاريخ ••• واذا بالروس في النهاية ينتصرون• (ألا ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أقوى الشبه بين هتلر ونابليون !)

هذه هي الحرب في قصة تولستوي ..

على أن أروع ما فيها تفسيره لفلسفة الاحداث ، ودلالة الهزيمة عنده والنصر .. فتولستوي ينكر على نابليون عظمته ، هو عنده ليس أكثر من رجل عادي واتته مقاليد الحكم المطلق طيعة فبلغ القمة ، لا لأنه عظيم وانما لأن الظروف كانت قد نضجت ، ونهر التاريخ قد انعطف الى مجرى معين ، فجرفه تيار نحو المصب المحتوم .. فهو في نصره مغرور ، وفي هزيمته طفل محزون . وهو ـ ككل دكتاتور ـ قد راح يموه على نفسه والناس ، ظانا أنه يقود شعبه بأطراف أنامله ، بينما الواقع انـه هـو المقود بقوة لا يدرك كنهها .. الى أعلى التل ، الى القمة فالمنحدر .

ومقابل نابليون ، يضع تولستوي شخصية أخرى يراها أعظـم منـه وأحق بالتقدير هي شخصية (كوتوزوف) القـائد الروسي العجوز الذي انتصر في النهاية ، وهـو رجـل طيب رقيق الاحساس متواضع يعرف انه (لا يساوي شيئا) ولكنه صادق الفراسة .. ولا يهم أنه يغط في النوم أثناء انعقاد مجلس الحرب ، فانه سيعرف كيف يلتزم الصواب فـي تصرفاته حين يستيقظ .. ثم فيم القلق وفيض الحوادث مقيد بمجرى معين لن يحيد عنه ؟ وهنا يصل تولستوي الى فلسفته التي يهدف اليها ، وهي أنه ما من شخص يجب أن يحمل وزر اشعال الحرب ، ولا حتى نابليون ! وما من حادث بذاته يمكن أن يعد سببا جوهريا لنشوبها ، وانما الصواب ان جميـع تصرفات البشر وأحداث التاريخ ، ان هي الا فقاقيع تطفو على مياه نهر، والنهر يفيض دائما وينتهي الى مصب ، فأحيانا يصب في (السلام) وأحيانا يصب فـي (الحرب) . وما من كائن بشري أو مجموعة من الكائنات تملك أن تصده أو تحوّل مجراه . ولو حاولنا ذلك لأضعنا أوقاتنا سدى ، كما نضيعها حين نحـاول وضع قانون ثابت لاتجاهات التيـار وظواهر الزمن ، فالله وحده صاحب الكلمة العليا والقول الفصل .

هذه هي فكرة تولستوي .. ولا شك اننا لو تمشينا مع النظريات الحديثة ، ففسرنا (ارادة الله) بالظروف الاقتصادية أو النفسية للدول والشعوب ، لخلصنا الى نفس النتيجة ، وهي أنه ما من كائن ـ أو حادث معين ـ يمكن أن يعد مسؤولا عن نشوب الحرب ، أو صاحب فضل في وقفها !

ورسالة تولستوي للناس بعد هذا ـ الناس في كل زمان ومكان ـ هي : (لا تنزعجوا ولا تحاولوا أن تفهموا .. فان ذلك لا يعود عليكم بغير البلبلة العقيمة . وانما أدوا واجبكم عندما يحين حينه ، وستعرفونه كاملا في أوانه !) .

هذا نصيب الحرب من القصة . أما نصيب السلم فيها فهو لا يقل ان لم يزد روعة وحياة . ففيه ننتقل ـ جذلين ـ بين المراقص والسهرات الانيقة الصاخبة ، ونصيد الذئاب مع أظرف الابطال ، وندرس مبادىء (الماسونية الحرة) مع بطل آخر ، كما ترحب بنا في مدخل الكتاب أجمل بطلاته ، فنلعب معها صبية ، وننصت لغنائها العذب وهي يافعة ، ثم نسعد مع قلبها ونشقى حين تغدو كاعبا حسناء ، ثم حين تذبل حياتها وتفيض من دمائها بهجة الشباب . وهي مع ذلك ، خلال جميع هذه الاطوار ، تبدو دائما ألصق ما تكون بالدراما العنيفة ، دراما الصراع بين روسيا وعدوها .. دراما (ارادة الله !) .

وهكذا نعاصر أبطال الرواية من شبابهم الى كهولتهم ، ونلمس بدواتهم ونزواتهم العقلية والروحية ، وهم يمرون بأطوار الجهل ، والغفلة ، وطيش الشباب ، وانفعالات العواطف .. الى ان تبلو كلا منهم التجارب ، وتنضج معرفته بالحياة ، فيقدم لنا أروع أمثلة التعقل وخير ما في حكمة الشيوخ .

ذلك اننا نجد في هذه القصة ، ولكن .. هل هي قصة ؟ انها بالاحرى الحياة نفسها ليس لها بداية ولا نهاية ، هي خليط متزاحم من المشاعر

والاحداث : الخطير منها والتافه ، المضحك والمفجع ، النبيل والوضيع ٠٠ اختلطت كلها في ثناياها ، كما تختلط في الحياة ، فاذا هي تحوي كل شيء : الحرب والسلم ، الحب والبغض ، اللهو والألم ، المسرات والاحزان، الشعب والفرد ، العامة والخاصة ، الريف والحضر ، الخمر والنساء ، زواج وطلاق وولادة ووفاة ٠ رجال وأطفال ونساء وكهول ، أشرار وأبرار ٠٠ أشخاص لا حصر لهم ، ينتشرون كلهم على سطح شاسع يقاس بمئات الاميال ، فيقاسون وينعمون بكل أنواع الاجواء ، وتقلبات الطقس ، ونزوات الطبيعة الغاضبة الراضية !

وفيما يلي عرض سريع خاطف لابرز شخصيات القصة وأخطر ما فيها من أحداث : نحن في روسيا أيام مجد نابليون : (الغول) الفرنسي قد راح يلتهم دول أوروبا دولة في اثر دولة ، ويطحن جيوشها جيشا وراء جيش ، ويقفز بين ممالكها وكأن العالم عنده ليس أوسع من قفص ، ويفتح عواصمها ليطرح ظله البغيض عليها عاصمة فعاصمة ٠

والروس مشفقون من ان يبلغهم هذا الظل بدورهم ، فهم لا يتحدثون الا في أن بونابرت هو أكبر عدو للجنس البشري ، وأن قيصرهم اسكندر هو المخلص العتيد في أن ينقذهم من خطره الوبيل ٠

بهذا كان الناس يلفظون في أحد قصور مدينة سانت بيترسبورغ ــ عاصمة روسيا القيصرية اذ ذاك ــ في مساء يوم من ايام شهر تموز سنة ١٨٠٥ حيث كانت النبيلة اناشير ، تستقبل مدعويها الى حفلتها الساهرة ٠

وهناك نتعرف الى أبطال قصتنا وأبرز شخصياتها ٠

فها هو الامير الارستقراطي المتعجرف أندريا بولكونسكي ٠٠ وها هي زوجته الاميرة ليزا ٠٠ وها هو صديقهما الحميم بيير بيزوكوف ، الابن غير الشرعي لأحد الأثرياء ٠

أما الامير اندريا فهو نبيل من أصل عريق ، رشيق الجسم أنيق المظهر، أكسبته بنوته لأحد الضباط العظام ، شجاعة هي بعض تراث عصور الفروسية ، كما أكسبته نشأته عقلا ناضجا مثقفا ، وان كانت ارستقراطيته قد خلعت عليه فيما خلعت ، كل مساوئها ، فهو شامخ الانف مزهو بنفسه ونسبه ، شديد الاعتزاز بأفضليته على طبقة العامة الذين كان لا يخفي احتقاره لهم •• لكنه رغم ذلك يملك قلبا جديرا على الحب والبغض ، محتفظا بطاقته في سائر العواطف القوية العميقة ، فهو يحب أباه وأخته الاميرة ماريا ، حبا مفرطا ، ويحب من الاصدقاء واحدا قصر عليه اخلاصه واعزازه ــ رغم التباين الصارخ بينهما في المظهر والجوهر ــ وهذا الصديق هو بيير بيزوكوف ، البدين المترهل الجسم ، القبيح الهيئة ، والذي ينقصه التهذيب في حركاته وتصرفاته ، وان كان اندريا يعتبره ذا قلب من ذهب ، من فرط طيبته وبساطته ورقة احساسه ، التي تجعله عطوفا على الناس جميعا ، يفهم من حوله أكثر مما يفهمون أنفسهم •

أما الامير اندريا ، ففيما عدا حبه لأبيه واخته ماريا وصديقه بيير ، لم يكن قلبه ينطوي الا على عاطفتين : الاحتقار المستور لزوجته الاميرة ليزا التي لا تعدو في نظره أن تكون حمقاء جبانة ، ثم الطموح والتطلع القوي الى المجد ، ولو عن طريق الحرب ، فالحرب عنده لم تخلق في الاصل الا كوسيلة تضفي على الناس أثواب البطولة والشرف • ومن ثم يكون غريبا أن نراه في تلك الحفلة الساهرة بسانت بيترسبورغ ، يغافل زوجته وينفرد بصديقه بيير ، يبثه همه ويشكو اليه متاعبه ثم يصارحه بأنه قد ضاق بحياته مع زوجته ، وانه لذلك يزمع الالتحاق بالجيش ــ وهو بهذا يرضي عاطفتيه معا : النفور من ليزا والسعي الى الشهرة ــ ثم نفهم منه أيضا أنه سيمر ، في طريقه الى الميدان ، بضيعة أبيه في « ليس جوري » كي يودعه ويودع

اخته الطيبة الوديعة ماريا ، ثم ليترك في رعايتهم زوجته الموشكة على الوضع •

ننتقل من حفلة النبيلة آنا في سانت بيترسبورغ ، الى عشاء فاخر في موسكو حيث نتعرف الى بقية الشخصيات ، وهم أفراد أسرة (روستوف) فنقابل الابن الاكبر نيكولا روستوف الذي كان قد ودع رياضته المفضلة (صيد الذئاب) وشرع يودع أصدقاءه قبل ان يلتحق هو الآخر بفرقته •• ثم ندع نيكولا لكي نتابع في شغف أخته الجميلة الغريرة (ناتاشا) وهي تتنقل في أرجاء المكان بخفة ومرح ، تداعب هذا وتمازح ذاك •

ومرت ثلاثة أشهر •••

واذا نحن في النمسا مع الجيوش الروسية والنمسوية المتحالفة ، حيث نتلقى نبأ انتصار نابليون في معركة (أولم) •• ثم نبأ دخوله فيينا •• واذا بالقيادة النمسوية تلوذ بالفرار الى (أولمتز) والروس يتقهقرون في غير نظام ، ونابليون يطاردهم ، حتى يلحق بهم ويضطرهم الى الاشتباك معه في معركة (أوسترلتز) •

وخاض الامير اندريا غمار تلك المعركة ، فأتاحت له شجاعته الموروثة وبرود أعصابه ، أن ينال أعلى تقدير من رؤسائه •• وان كانت مرارة القتال قد غيرت آراءه في الحياة ، غيرت أول ما غيرت ايمانه بتحري العدالة في توزيع أوسمة البطولة على المقاتلين ، فلقد رأى بعينيه كيف كان يندر ان ينال تلك الاوسمة من يستحقها فعلا ، وكيف أنها في الغالب لا تكون الا من نصيب من تضعه الصدفة المحضة والحظ الاعمى تحت أنظار من بيدهم الأمر من الرؤساء •• بل رأى أكثر من ذلك ، كيف ان ضابطا متواضعا مغمورا ، من ضباط المدفعية ، كان وحده صاحب الفضل في ابادة كتيبة

فرنسية كاملة وتغطية انسحاب الروس ، ورغم ذلك فان عمله الجبار هذا قد ظل مجهولا من قائده ، فلم يكفه أن حرمه من وسام الاستحقاق ، وانما كاد ان يجازيه بقسوة ، لا لشيء الا لأنه (أضاع بعض البنادق التي كانت في حوذته !) •• وكان هذا أكرم جزاء للبطولة التي لا تعلن عن نفسها •

رأى اندريا كل ذلك فعقد ايمانه بعدالة الثواب والعقاب في الجيش، وايمانه بخرافة البطولة والشجاعة ، ثم أوشك أن يفقد مع ايمانه حياته •• فان المعركة قد احتدمت في أوسترلتز •• وهزم فيها الجيش الروسي هزيمة مروعة فعمد الى الفرار •• وكان من نصيب اندريا ان التقط العلم الساقط من ضابط محتضر ، التقطه من يده في شجاعة وظل رافعا به ذراعه ، وكأنما أثرت فيه بطولة زميله الضابط المغمور ، فاستطاع هو بدوره أن يصمد ببطاريته في أفواه مدفعية الفرنسيين ، صمد طويلا وكاد يصمد الى النهاية، لولا ان اصابته شظية طائشة •• فسقط والعلم ما يزال في يده • وفي غمار الدقائق القليلة التي مرت قبل ان يغيب عن الصواب وتتلقفه الغيبوبة، أحس ان جرحه خطير ، فأدرك فجأة تفاهة كل ما كان يطمح اليه من متاع الدنيا • أدرك تفاهة الحياة ، ولكنه أدرك ايضا روعة وجمال السلام العذب العميق الذي ينتظره •• السلام الذي ما كان قد رآه أو أحسه قط من قبل ، حتى أتيح له ذلك كله الآن ، فجأة ، وفي وميض خاطف ، في تلك اللحظة الهائلة التي يحس الانسان فيها بخطى الموت تقترب منه •• ولا تنسى ان تقترب !

فتح اندريا عينيه وهو ملقى على الارض يغالب الألم ، فتحهما ليرى ما انتهى اليه الصراع بين بطاريته وبين مدفعية الفرنسيين •• ولكن الميدان كان مهجورا والسكون مخيما على الوجود ، فلم يسمع شيئا ، أو ير شيئا ، الا هذه السماء العريضة الممتدة فوق عينيه ، السماء العالية السحيقة المتناهية في العمق ، السماء الحلوة الصافية الا من سحب خفيفة دكناء ، تتمشى وئيدة فيها •

ما أعظم هذه الوحشة وهذا الهدوء يا اندريا ٠٠! أين هذا مما كنت فيه منذ ٠٠ منذ متى ؟ وأنت تجري وتقاتل وتصيح والقذائف تتناثر من حولك كالحمم ٠٠ أين ذلك الجحيم والنيران ، من هذه السماء العميقة السحيقة ، وهذا الجلال الذي يحف بالكون ٠ لكم انت فرح ٠٠ أخيرا قدّر لك ان تلمس حقيقة الحياة ، وتعرف ان كل من عليها صائرا الى الفناء ، وكل ما عليها باطل خواء ٠٠ الا هذه السماوات اللانهائية ٠٠ رباه ! ما أحلى السلام وما أحلى هذا الصمت العميق العذب ٠٠ رباه ٠٠ شكرا ! شكرا ٠

وتلقفته الغيبوبة من جديد ٠

غيبوبة لم يفق منها الا بعد زمن ، حين فتح عينيه ، ليجد أمامه ، وفوق رأسه ، البطل الجبار المنتصر : نابليون ، بلحمه ودمه ، واقفا يرقبه ، صامتا أول الامر ، ثم مهنئا اياه في حرارة ، بشجاعته الهائلة ٠٠ لكنه قابل المفاجأة ببرود ٠ فحتى هذا المديح والاطراء من البطل الذي كان فيما مضى مثله الاعلى المعهود ٠٠ حتى هذا الاطراء من بونابرت ، لم يحرك نفسه الآن ٠ فانه قد لمس اخيرا تفاهة المجد الحربي ٠٠ لمسه وانتهى الامر ٠ ونقل الامير الجريح الى مستشفى الميدان ٠

* * *

لم تكد تنتهي ملحمة أوسترلتز بتلك الكارثة المروعة التي أصابت الروس ، حتى تواترت الانباء في ضيعة (ليس جوري) بأن الامير اندريا مفقود ، وانه لا بد قد لقي حتفه في القتال ٠ وفاجأ النبأ زوجته الاميرة ليزا وهي مشرفة على الوضع ، فلم تكد تضع طفلها حتى اصيبت بمضاعفات قضت عليها بعد أيام ٠٠ وفي نفس الليلة التي ماتت فيها ، فوجئت الاسرة الحزينة بعودة ابنها المفقود : اندريا ٠٠ عاد معافى من جرحه الخطير، ولكنه أضحى رجلا غير الرجل ، اضحى رقيقا مرهف الاحساس مضعضع الحواس،

لا ينظر لنفسه الا على انها نفس قد شاخت واستوفت حظها من الحياة ، الحياة التي ما عادت تجلبه ولا عاد بريقها يغريه ، فانه قد غدا زاهدا في الدنيا ، زاهدا في البطولة والمجد ، مسلما كيانه للسأم والاوهام .

وضاق بنفسه اخيرا ، فأوى الى ضيعته ينشد السلوان من عبوس الايام .

ولكن الايام التي عبست له، كانت تبسم لصديقه بيير فيبيترسبورغ . فلقد نال بيير اعتراف ابيه الثري بأبوته ، فغدا ابنه الشرعي ،ومات الأب تاركا للفتى ثروة طائلة ، فاذا هو — في غفلة الاقدار — يمسي غنيا مفرط الغنى ، واذا بمصاهرته تمسي وتصبح مطمح أنظار النبلاء ، يطمع كل منهم في ان يزوجه من ابنته .. والفتى فرح مغتبط ، يرقب السباق الممتع وكأن الامر لا يعنيه . وهنا تبرز حقيقة شخصيته ، فان سذاجته ورقة حساسيته ، ثم ضعف ارادته الذي يقوده دائما الى التورط في أمور لم يكن يريدها .. كل ذلك يتضافر ويتآمر على هناءته ، فاذا هو مسوق الى الزواج من امرأة كان يريدها فقط ولا يحبها ، واذا هو يفتح عينيه ذات يوم ، ويتنبه من سكرة التهافت العذب على اصطياده .. فيجد نفسه زوجا (لهيلين) .

ولكن الزواج لا يقوى طويلا على عوادي الزمن ، ولا يثبت لأهواء القلوب ، فلا يلبث حتى يتكشف عن فشل أليم، ولا تلبث مغاضبات الزوجين ان تنتهي يوما .. بالانفصال ، فيترك بيير زوجته ، ثم يترك المدينة كلها ، لينطوي على نفسه في الريف ، كما فعل صديقه الامير اندريا من قبل .

ولكن عزلة كل منهما لا تعني أن عجلة الزمن قد كفت عن الدوران ، بل انها على العكس كانت ممعنة في الاسراع ، فان نابليون قد وثب من نصر أوسترلتز الى ملاقاة جيش النمسا وتشتيت شمله في معركة جديدة ، واذا هو قد بلغ برلين .. وها هو يقترب من وارسو . ثم تبدو في الافق طلائع نواياه العدائية ضد روسيا في ذات أراضيها .

ثم جاء حزيران سنة ١٨٠٧ فاذا هو قد ألحق بالروس هزيمة جديدة نكراء في (فريدلاند) وهكذا لم يجد القيصر مفرا من طلب الصلح ، فالتقى الخصمان حول مائدة واحدة في (تيلست) ولكنه صلح على ضغن ، وصداقة تطوي من العداء أكثر من جنبيه •

ومر عامان !

عامان هادئان ، فلا حروب ولا صدام! ولكنهما عامان حافلان، بأطوار النفوس من انفعال واضطرام !•• فان بيير قد ضاق بوحدته في الريف ، فاعتزل العزلة ليستأنف حياته التعسة مع زوجته •

وأسرة روستوف قد اضطربت شؤونها المالية ، وعبثا حاول نيكولا اصلاحها، فاضطرت الاسرة الى الانتقال من موسكو الى سانت بيترسبورغ، كي تجرب حظها في الحياة من جديد • ورغم الحاح الام ، رفض نيكولا ان يشتري رخاء ذويه على حساب قلبه ، بالزواج من نبيلة وارثة •

أما بطلنا الثالث اندريا ، فبعد استكانة طويلة في أحضان ضيعته ، طلقها فجأة ليعود بدوره الى العاصمة •

وهناك •• هناك تربضت له جنته •• وجحيمه !

كان ذلك في ربيع سنة ١٨٠٩ ، خرج اندريا يقود عربته الى ضواحي سانت بيترسبورغ ، صوب منزل آل روستوف • وكان الطريق جميلا يخلب الابصار والطبيعة عذبة تفتن الافكار ، والهواء رقيقا يعزف لحنه على غصون الاشجار •• ولكن نفس اندريا كانت ترزح تحت أثقال الاسى ، وتحت وفر الشعور بأنه قد شاخ ، وخلف حياته وراءه •

وفيما هو يقترب من القصر ، لمح من بعد بعض الفتيات يمرحن بين الاشجار ، وكانت تجري في مقدمتهن فتاة نحيلة قاتمة الشعر والعينين ترتدي ثوبا أصفر ، وفوق رأسها منديل ناصع البياض تبرز منه خصلات من شعرها قد استدارت في هيئة حلقات •

انها ناتاشا روستوف ، أخت نيكولا ، التي رأيناها منذ اربعة أعوام في عشاء فاخر بموسكو ، تنتقل بين المدعوين في خفة ومرح ، تداعب هذا وتمازح ذاك •

لكنها قد نضجت ، وثارت فيها انوثتها ، فأكسبها ذلك الانفعال العذب الذي يجعلها خفيفة طليقة ، لا تكاد تستقر في مكان ، أو تخلد الى راحة ، أو تأنس الى انسان ، وانما هي فرحة بنفسها ، فرحة بشبابها النضير ، وصوتها الحلو •• فرحة الحياة • ولعل هذا ما أفاض عليها سحرا ومكنها من قلوب الرجال ، فهي لا تكاد تقدم الى أحدهم حتى تغدو معبودته ، ولا يدخل البيت رجل الا ويهواها ، ولا تبدو في مجتمع حتى تمسي مرموقة من الجميع بقدر ما هي مرموقة من أسرتها • وبقدر ما ترمق هي الدنيا وتعشقها فلا ترى فيها الا كل ما هو ضاحك مشرق بهيج ، ولا تخطر في مكان الا وتبعث من حياتها في الجماد حياة ، وتستشف وراء أقبح الاشياء جمالا وشعرا وسناء •

وهي أول من تقترح على الناس الخروج الى الرحلات والنزهات، وأول من تبدو دائما على استعداد لأن توفر لغيرها أسباب اللهو والمتع •• تفتنها جولة صباحية في الغابة ، أو ليلة مقمرة في الربيع ، أو أغنية لطيفة حنون ، وكأن مسا من الحيوية المشبوبة قد أصابها فأغراها بأن تعب من فيض مسرات تلك الفترة السحرية من عمر الفتيات ، فترة الشباب الباكر الزاخر الذي يملأ الدنيا في أنظارهن ضياء زاهيا وهميا لم يشرق على الارض قط •

كان ذلك كله ـ ولا ريب ـ ما فتن اندريا وجذبه اليها حين لمحها تجري وتمرح مع الفتيات وهن يختبئن وراء جذوع الاشجار •

وفي المساء حين صعد اندريا الى الغرفة التي أعدت له ، سمع ناتاشا تثرثر مع ابنة عمها سونيا ، وهما متكئتان على نافذة تحت نافذته •

كانت الليلة جميلة في هدوئها، وأمام النافذة صف من الاشجار العالية

التي بدت خضرتها في ضوء القمر فضـــة لامعة •• ووراءها نبـــرق قطرات الندى فوق سقف منزل بعيد •• والى اليمين شجرة سامقة تشعبت أغصانها وامتدت تتلقى وتغربل شعاعا ناعما من نور القمر الذي كان يشرق بهيا فـــي ظلام تلك الليلة من ليالي الربيع ، ليضيء سماء خالية من النجوم •

اتكأ اندريا بمرفقيه على حافة النافذة ، وثبت عينيه في تلك السماء ، ومن النافذة السفلية جاءه صوت ناتاشا وسونيا تغنيـــان لحنـــا رقيقـــا ، ثم تنتهي الأغنية فتدعو سونيا ناتاشا الى النوم ، ولكن هذه تجيبها محتجة (سونيا ! سونيا ! كيف يمكنك الاخلاد الى النعاس ؟ تأملي الدنيا •• كم هي جميلة ! ابقي معي يا سونيا وانظري) ثم تضيف ودموع الانفعال تجول في عينيها : (تأملي •• انظري الآن •• ان ليلة كهذه لم تُر قط من قبل) •

* * *

وقابلها اندريا بعد ذلك في أحد المراقص ، حيث كـــان مرحها الشبيه بجذل الاطفال يبعثفي جو المكان الخانق أنفاسا من الهواء المعطر • فأحس اندريا ان نفسه التي أغلقتها مآسي الحرب فـــي ظـــلال المعارك والدماء ، تتفتح من جديد لتستقبل الربيع مجسما وبهجة الحياة متجسدة في هيئـــة كائن من البشر ، هو ناتاشا •

ثم نما الود بينهما فالحب ، فاذا هما متفاهمان علـــى الزواج ، واذا اندريا سعيد كما لم يسعد من قبل ، ونفسيته التي كانت قد تضعضعت ، عادت فانتعشت مرة اخرى ، واذا هو قد اعتزم ان يحيا حياة اكثر نشاطا•• وكان جادا في عزمه ، فلم يأت آب الا وهـــو فـــي بيترسبورغ مضطلعـــا بدور هام في برنامج الحكومة الاصلاحي •

ثم تقدم لخطبة فتاته ، ولكن مالية اسرتها كانت لا تـــزال مرتبكة ، فأصر والده على تأجيل الارتباط عاما ، فانتهز اندريا الفرصة وسافر الـــى

الخارج ليستجم من عناء العمل المتواصل الذي أرهقه في الشهور الاخيرة، سافر وهو لا يرى في بعد أجل الزواج تعنتا أو ارهاقا ، كما لا يتوقع أن تجد فيه ناتاشا شيئا من ذلك أو تضيق به .

ولكنه كان واهما .. فانه كان قد أيقظ في الفتاة أنوثتها ، وكانت غريرة ومتقدة المشاعر فعانت في فترة غيابه قسوة الفراغ الذي تركه فجأة في حياتها ، كما ان حساسيتها القصوى قد جعلتها تألم اشد الألم ، من الفتور الذي كانت تقابل به من اسرته . وحين آن أوان السفر الى موسكو لاعداد جهازها أخذها أبوها الكونت روستوف الى هناك ومعهما سونيا ، ثم تركهما في منزل سيدة عجوز من صديقات الاسرة .. وبهرت الحياة الاجتماعية الصاخبة في موسكو الفتاة المتعطشة للحياة والمسرات ، فأفلتت لشبابها العنان .. وغمرها سناء المراقص والملاهي والحفلات فعرفت (أناتول) .

كان أناتول فتى عابثا وضيع النفس ملتوي الاساليب يتقن الكلام المعسول فأمنت له اذ تودد اليها ذات ليلة في دار الاوبرا . ومن ثم باغتها بحملة عاطفية عنيفة لم تملك المسكينة مقاومتها فاذا بها قد فتنت به ، واذا هي تكتب الى اندريا خطابا تنبئه فيه بفسخ خطبته . ثم تتهيأ للفرار مع أناتول ، لولا ان يكشف التدبير ويحبط في الوقت المناسب ، تكشفه سونيا المتعقلة الرزينة فتطلع عليه مضيفتها العجوز، ومنها تعلم الاسرة كلها، فتعاد الفتاتان الى سانت بيترسبورغ ، حيث تعلم ناتاشا من صديق الاسرة الطيب (بيير) ان اناتول لم يكن يبغي غير العبث بها ، فانه متزوج فعلا .. وعلى دوي الحقيقة تفيق ناتاشا فجأة من طيشها ، وتدرك سوء ما تصرفت وما فعلت بخطيبها النبيل اندريا .. واذا هي في غمار الخجل والندم تحاول الانتحار .

عاد اندريا من رحلته في الخارج فعلم بالقصة كلها ، وكانت الصدمة قاسية • أحس انه قد طعن في زهوه وكبريائه وأعجزته طبيعته من تقدير نفسية الفتاة وعن التماس الاعذار لطيشها ، فأبى ان يفصح عنها • وقصر جهوده على البحث عن غريمه ، بحثا مضنيا طويلا ، فلما لم يعثر عليه التحق بالجيش من جديد ، وقد عاودته مرارته ، ونظرته القديمة الى الحياة • ثم سافر الى الميدان ليدفن شجنه في القتال •• فقد كنا في حزيران سنة ١٨١٢ ، وكان نابليون قد فرغ من تلقي حفاوة ملوك اوروبا في (درسدن) ومل رؤية جباههم الصاغرة المعتادة فتطلع الى مجد جديد وجباه صاغرة جديدة •• ومن ثم عبر (نيمن) ليهاجم روسيا في بلادها •

- وهكذا بدأ القتال مرة اخرى ، وعاد الروس يتقهقرون ، فرجع القيصر من بولونيا الى موسكو حيث جمع قواده واستقبل نبلاء المدينة وتجارها ، للبحث في مواجهة الحالة • واسفرت المشاورات عن تسيير جيشين روسيين لملاقاة الفرنسيين ، ولكن نابليون كان أسرع منهما فقطع عليهما الطريق باحراق سمولنسك ، مما اضطر الجيوش الروسية للارتداد وفي ذيلها الفرنسيون يلاحقونها ويقتربون من (ليس جوري) حيث تقطن اسرة اندريا بولكونسكي • ولم تجد الاسرة بدا من الفرار ، وفي الطريق مات الامير الاب تاركا ابنته ماريا لتقيم في ضيعة اخيها اندريا وحيدة ضائعة •

لكن الأقدار كانت تهيىء للاميرة الوديعة ملاذا رحيما ، ففي تلك الاثناء تصادف ان عسكرت فرقة نيكولا روستوف قرب الضيعة ، فوجدت ماريا فيه أنيسا ينقذها من انفرادها الموحش الكئيب ، ووجد قلبها الى قلب نيكولا سبيلا ممهدا ناعما ، بينهما حدب •• ثم ود •• ثم هوى متبادل وهكذا لقيت اليتيمة جزاءها واستحقته ، بعد حياة جافة مقبضة ، لقيته بعد ان عاشت محرومة من تهافت الرجال ، تحب ولا تحب ، من فرط ما ضنت

الطبيعة عليها بالجمال ، رغم ذكائها ونبلها وثرائها • فكانت سريعة الخجل والتودد ، تخطو متثاقلة في مشيتها ، من وطأة ما تعاني من الاحساس بالنقص وانعدام الثقة بالنفس • ولكنها رغم ذلك كانت دائما احدى اولئك اللواتي يملكن سر الحياة : هبة المحبة ، تريقها على الناس بلا حساب ، فهي تعبد أخاها اندريا ، ومن أجله أحبت زوجته البغيضة ليزا الى ان ماتت ، ثم هي قد احتملت بلا تذمر ، وعاما بعد عام ، تحكم والدها وتعنته وفظاظته •

واخيرا — وان يكن متأخرا — تنال جزاءها عن كل هذه العذوبة والصبر ، فان اندريا قد أمسى يقدرها ويفهمها ، وأباها الظالم قد مات معترفا لها بأنها كانت له دائما ملاكه اللطيف الحارس ، ثم ها هو جمالها الروحي الصرف يغتصب لها في النهاية •• لا الميل ، ولا الاعجاب ، بل الهوى والعبادة من نيكولا روستوف ، أبرد الرجال ، الذي كان طوال عمره فاتر العاطفة مع من هن أجمل منها وأصبى •• فاذا هو يتحول اليها ليهبها حبه وقلبه •

* * *

في الوقت الذي كان فيه ميدان القتال لا يزال في ظمأ للدماء ! نشبت معركة جديدة بين الفرنسيين والروس في (بورودينو) فتلاحمت الجيوش واحتدم العراك ، واذا بعشرات الالوف من الرجال يذبحون كالاغنام واذا بالخطر الفرنسي يدنو من موسكو ، فلا يجد الروس بدا من اخلائها من ساكنيها المدنيين •• وفي غمار الفزع والاضطراب شرع الاهالي ينزحون عن المدينة في سيل لا ينقطع •• وكانت اسرة روستوف بين الاسر المهاجرة ، فانهمكت ناتاشا في اعداد الامتعة والحقائب ، ثم ما لبثت ان قررت تضحية تلك الامتعة وتركها وراءها ، كي توفر أقصى ما يمكن توفيره من الجياد والعربات ، لنقل الجرحى من الروس الذين خروا في بورودينو •

ولم تكن التعسة تدري ما تخبئه لها الساعات التالية •• فكانت المفاجأة حادة عنيفة : لقد عثرت سونيا بين الجرحى على •• اندريا !

كان اندريا قد أصيب في المعركة بجرح خطير ، وكم كان القدر ساخرا حين دبر ان يتنبه الجريح من غشيته على صوت انين تلفت الى مصدره ، فاذا هو يرى غريمه القديم أناتول ، الذي سلبه ناتاشا •• رآه في هيئة بشعة وقد قطعت ساقه فراح يتأوه الاحتضار ، فلم يملك اندريا نفسه من العطف عليه والاشفاق ، متناسيا حقده القديم تماما كما تناسى حقده على ناتاشا بدورها ، عندما رآها بغتة امامه • رفع عينيه اليها ، فاذا هي فتاته القديمة بكل ما في روحها من عذوبة ، وما في جسدها من شباب نضير •

وصارت تمرضه ، وتريق عليه من حنانها فيضا يتدفق • فكانت هناءته تعاونه على مغالبة الفناء ، فيومض الامل في شفائه وميضا قويا ، ولكن الى حين •• فان الموت كان يترصده ويريده ، ويأبى الا ان يعود بروحه •• وهكذا ظل التعس يتأرجح بين البقاء والعدم • ثم تفاقمت يوما آلامه فأدرك انه هالك ، بل أحس انه يموت تدريجا وانه في منتصف الطريق الى الزوال ، فعانى كل مرارة ادراك كنه هذا العبور من عالم مألوف الى عالم رهيب مجهول ••

لكن تشبثه بالحياة لم يكن عن ضعف وخور ، وانما كان مبعثه ان الحياة قد أضحت عنده تعني دنيا من الشعر والبهجة والحب •• تعني ناتاشا ، التي كانت ترقبه صامتة وهو يغيب عنها رويدا رويدا ، في بطء وسكينة ، الى عالم عميق سحيق •• ولكن •• ما له يهدأ فجأة ويزايله جزعه ، فتنبسط أساريره ؟ لكأنه ينتظر مصيره بلا قلق •• ولكن بلا لهفة ايضا •• ولكأن حضرة الموت ، التي كانت دائما تخيفه وترعبه ، والتي لم تكف لحظة ــ طوال حياته ــ عن مطاردة حواسه •• لكأنها الان ــ وهي

قريبة منه ، بل فوق رأسه ـ قد فقدت بغتة طابعها وطلعتها الكريهة ، وحين أحضروا له طفله الصغير ، ليودعه ، طبع على جبينه قبلة واهنة ، ثم أدار وجهه ، وثبت عينيه في تلك السماء الفسيحة الصافية .

وهكذا عبر البطل عتبة الحياة ، وأخلد للنعاس الابدي ، باستسلام عذب نبيل .. وكأنه قد وجد السلام اخيرا ! كان الاختطاف قاسيا على ناتاشا، فذاقت مرارته وأحسته بكل مافي كيانها من قوة انفعال، كعهدها دائما.. ثم بدأت مع الايام تضمحل رويدا رويدا ، وتذبل ، ويذوي عودها ، حتى غدت نحيلة شاحبة تجلس صامتة ساعات تحدق في الفضاء العريض الذي رقد فيه اندريا ، ولا تكاد تحس للدنيا وجودا ، وهيئتها تنطق بأنها هالكة .

وفقدت أسرتها كل أمل في انقاذ حياتها ، وخاصة حين دهم الاسرة مصاب جديد ، فان الاخ الصغير (بيتيا) قد لقي حتفه في احدى معارك العصابات ، فجنت الام من لوعة الحزن ، وراحت في هذيانها تنادي وحيدتها الباقية ناتاشا ، في حرقة مفجعة ، وعكفت الفتاة على رعاية امها الذاهلة ، مرهفة كل ذرة من أعصابها في سبيل انقاذ عقلها .. وكان في هذا خلاصها، فانها نسيت نفسها وشجنها ، وعادت تدريجيا الى الحياة . واذا هي تحيا من جديد ، بفضل نفس المشاعر والعواطف التي كادت أن تؤدي بها .

لم تكد تنتهي معركة بوردينو بهزيمة الروس ، حتى انطلق نابليون بجيشه يطوي الى موسكو ، وعندما بلغ ضواحيها أدهشه الا يخف وفد من اسراتها وحكامها للقائه وتسليم مفاتيح المدينة في خضوع ، ولكن دهشته كانت أهون مما تلاها ، فان ألسنة اللهيب ما لبثت حتى بدت له من بعيد ، تتصاعد من قلب موسكو ، فاندفع الى مدينة احلامه مسرعا مذعورا ، واذا بها خاوية مهجورة على أطلالها ورمادها .

وفي لحظة تبددت احلام اعوام ، فبقي يناضل الاقدار خمسة اسابيع،

وجنوده المنهكون يقاسون الاهوال من البرد والجوع، ويتلاشون كل يوم بالالوف وكأنهم يذوبون في الثلوج •• وعبثا حاول ان يجد لهم زادا ومؤونة ، فلم ير آخر الامر بدا من اخلاء موسكو ، بادئا ارتداده التاريخي الرهيب نحو سمولنسك •• الارتداد الذي كلفه ثلث جيشه الجبار ، وأفقده خيرة رجال زبدة شباب فرنسا ، هلكوا تحت وطأة عاملين : هول الجوع والثلوج والمستنقعات ، ثم الغارات الرهيبة من رجال العصابات •

ولم يهلكوا وحدهم ، وانما هلك معهم الوف من الاسرى الروس ، الذين كان من بينهم •• بيير •

كنا قد تركناه في موسكو ، وكان قد آثر - حين اقترب جيش نابليون - ان يظل في المدينة متنكرا في زي سائق لاحدى العربات •• لكن أمره لم يلبث ان افتضح ، بل واتهم بأنه احد المشتركين في احراق موسكو في وجه نابليون فحكم باعدامه ، ثم صدر عفو عنه في آخر لحظة ، اكتفاء بأخذه اسيرا •• وهكذا نقابله الآن في ركاب الجيش الفرنسي المرتد ، نقابله وقد جمع الاسر بينه وبين صديق قديم من (الماسون الاحرار) فيلسوف في سذاجته ، هو بلاتون كاراتايف ، الذي كان لآرائه الساذجة والعميقة معا - أكبر الأثر على عقلية بيير ونفسيته •

لم يكن بلاتون الا فلاحا محدود الذكاء بعيدا عن الرقي والتهذيب ، حياته ليست غير حرمان متصل ، ولكنه كان رغم ذلك كأنه الحب مجسما ، فهو رقيق عذب عطوف على كل انسان، بقدر ما كان قدره قاسيا عليه، فجعل حياته سلسلة من الكوارث والفواجع، آخرها فاجعة نهايته •• فان الفرنسيين كانوا - في ارتدادهم المنكود - يجدون في تضخم عدد الاسرى عبئا ثقيلا يعطل ويؤخر فرارهم ، ويكلفهم من المؤن والطعام ما لا يجدون لانفسهم ، فلجأوا الى التخلص من كل أسير يعوقه التعب أو المرض من مواصلة المسير• فلما أصاب بلاتون ذلك الاعياء والانحلال جلس تحت شجرة عتيقة في

الطريق ، ينتظر مصيره بوجه هادىء القسمات يكسوه تعبير أقرب الى الاستسلام والاشراق٠٠ وان كان قد رمى الى صديقه بيير ــ وهو يودعه ــ نظرة كلها مناشدة ٠٠ ولكن ماذا يملك الصديق من عون ٠٠ وهل امامه غير النجاة بنفسه ؟ وهكذا خلفه بيير وراءه وولى ، وقلبه ينوح على رفيقه الطيب النبيل، وبعد لحظات وقبل ان يبعد بيير في المسير سمع صفير رصاصة تنطلق ثم مر به جنديان فرنسيان يلوح على أساريرهما تعبير آثم ٠٠ وعوى في أذنه نباح كئيب ٠٠ فان كلب الفيلسوف كان يرثيه !

لكن روحه لم تذهب هباء ، فلقد وجد بيير في تلك الفاجعة مفتاح الحقيقة التي طالما بحث عنها ، حقيقة الحياة ، فاذا به الآن يحس ــ رغم تزايد آلامه البدنية ــ بأن قلبه يخف ، وروحه تسكن ، وكأن اثقاله قد طرحت عن كاهله وحل محلها جذل غريب وغبطة مبهمة ، غبطة من قاسى متاعبه بمأساة غيره ، فاذا متاعبه قد هانت ، وغدت كلها أقل أيلاما مما كانت ٠٠ واذا به يتحامل على ساقه المرضوضة المسلوخة ، متلهيا عن النظر الى جرحه المتقيح بتأملات اخرى ، ومتجاهلا مصير مئات الاسرى التعساء بالتفكير في مناظر أمرّ وأقسى ٠٠ فاذا بالمستقبل يصبح في خياله مشجعا واذا هو يجد في أعماقه حافزا خفيا ، فيواصل سيره فوق الثلوج وقد كفت نفسه عن ان تعاف لحوم الجياد التي كانت غذاؤه ، ومذاق البارود الذي صار ملحا لطعامه ٠٠ وأمسى يحتمل طنين الحشرات والهوام التي كانت تغطي جسده ، معزيا نفسه بأنها انما تدفئه وتكسوه ، وان الله يمتحن بها صبره وبلواه ، وهكذا صار يستمد من البؤس ايمانا يعمر قلبه ويجلوه ! ثم جاءه الخلاص اخيرا ٠٠ من حيث لا يدري ٠

فقد فوجىء من رجال العصابات ، انقضوا بغتة على البقعة التي كان فيها فأنقذوه ونفرا غيره ، لكن البطولة لم تذهب بغير ثمن ، فان بنادق الفرنسيين قد تصيدت أحد المهاجمين ٠٠ وكان الشهيد فتى غريرا : بيتيا

روستوف شقيق ناتاشا الصغير ، وبينما كان بيير وجماعته في الطريق الى أحد مستشفيات (اوريل) كان تقهقر الفرنسيين قد أدى بهم الى التحام جديد في (فيازما) حيث أسر الروس منهم ستة وعشرين ألفا كانوا على شفا الموت جوعا وبردا ، ثم ظلت خسائرهم تتفاقم وتتضاعف وارتدادهم يتكشف عن سلسلة من الكوارث فني فيها أكثر الجيش وسط صحاري شاسعة من الثلوج ، حتى اضطر نابليون الى التخلي عن جيشه فتركه لمصيره - يوم ٥ كانون الاول سنة ١٨١٢ - وعاد هو محطما الى باريس، في الوقت الذي انعم القيصر فيه على القائد الروسي بأرفع وسام •

وجاء كانون الثاني سنة ١٨١٣ ، وعاد سكان موسكو تدريجيا الى مدينتهم التي صارت انقاضا ورمادا ، وعاد بيير من ضمن من عادوا ، بعد ان قضى في أوريل شهورا بمستشفى من جراح ساقه •• أما جراح نفسه فلم تكن في حاجة الى علاج ، فانه قد خرج من الجحيم الارضي - جحيم الحرب والآلام - رجلا بالغ السعادة في النهاية، فقد علمته الحياة والتجارب مدى رحابة النفس البشرية وقوة احتمال الانسان • وها هو الآن يعود الى موسكو ليجد زوجته هيلين قد ماتت ، وناتاشا قد تغيرت الى درجة كاد معها أن ينكرها ، فلقد كان صعبا عليه ان يتعرف في هذه الفتاة الشاحبة النحيلة، وهذا الوجه المتهضم الجامد •• على ناتاشا القديمة العذبة ، ذات الشباب الدافق والحياة المتوردة النابضة •• كان صعبا عليه ذلك ، ولكنه حين عرفها أومضت في خياله نجأة صورتها الاولى بكل دقائق فتنتها ، فأحس بحبه لها يفيق في قلبه ، بعد ان كان قد ألجأه في الماضي الى سبات عميق ، يوم ان دفعته صداقته لاندريا الى ان ينكر حبه وذاته ، باذلا قصاراه كي يسوق ناتاشا ويكسب قلبها لصديقه لا لنفسه • وحتى حين تنكر لها اندريا على أثر قصتها مع أناتول ، وحين ضن عليها بالغفران ، ظل بيير محتفظا بتقديره لها

وحبه الكامن ، فكان تفانيه هذا أقوى شعاع أنار لها طريقها في أحلك ساعات الاحزان والآلام

واذن فقد آن لها أن تكافئه •• وقد فعلت •• فبعد شهور تزوجا !

ثم مات أبوها الكونت روستوف العجوز ، تاركا وراءه ديونا كثيرة، ألجأت ابنه الاكبر نيكولا ، وأمه ، وسونيا ، الى ان يعيشوا عيشة متواضعة حتى استرد نيكولا مركزه المالي ، فحقق بدوره حلمه القديم : تزوج من الاميرة الوديعة ماريا أخت اندريا •• وتركا موسكو ليبدآ حياة جديدة سعيدة في ضيعة (ليس جوري) •

ثم رزق منها اطفالا •• ورزق بيير من ناتاشا اطفالا •• فامتزجت الاسرتان •

وها نحن في النهاية نودعهم جميعا ، ليلة عيد القديس نيكولاس في ٥ كانون الاول سنة ١٨٢٠ وهم يحتفلون بالعيد ويسمرون ، ويتذاكرون الماضي !! ويتطلعون الى مستقبل أيامهم على الارض ، ومستقبل بلادهم المعبودة ، بكل ثقة وطموح ، أناس قد أنضجتهم التجارب والمحن ، وعلمتهم الايام قيمة الحرب والسلم •

فيدور دستوفسكي
والجريمة والعقاب

ولد فيدور ميخايلوفتش دستوفسكي في موسكو سنة ١٨٢١ وتخرج من مدرسة الهندسة العسكرية ، ولكنه تفرغ للحياة الادبية وامتاز بالقدرة على البناء الدرامي للقصة ، وعلى تصوير نماذج بشرية خالدة ، وقد عده النقاد من اعظم الكتاب الانسانيين في العالم حيث وضع الاحساس فوق المنطق . ومأساة حياته هي التي حولته الى هذا الاتجاه ، فقد حكم عليه بالاعدام عام ١٨٤٩ بعد ان وضع في حصن سان بول اربعة اشهر ، لاشتراكه مع بعض اصدقائه في مناقشات حولما كانوا يغالون بتسميته « مؤامرة بتراشفسكي » . وحين سيق الى ساحة الاعدام وقرعت الطبول ايذانا ببدء الاعدام تلي امر من الامبراطور باستبدال الاعدام بالسجن في سيبيريا. فقضى فيها عشر سنوات ، منها أربع سنوات في السجن . وفي كتابه « منزل الاموات » يروي يوميات سجنه وهو بين رفاق من المجرمين والسفاكين والسارقين ، ولا يملك قارىء هذه الصور الا ان يحس أنه أمام نماذج لضحايا ذلك المجتمع الاقطاعي الفاسد الذي شاع فيه نظام رقيق الارض .

وبعد ان افرج عنه بسنوات اخرج الجريمة والعقاب وبعدها الاحمق ، اللاعب ، الاخوة كارامازوف .

* * *

تتسم قصص دستوفسكي ان ابطالها يغلب عليهم الاحساس والذكاء وخيال فوق العقل ، وتكاد تخلو جميعا من العقدة الا القليل جدا ، وهو في قصصه يتناول الواقع ، ثم يسير به نحو غايات من الفن والشعر ، ونتحسس بقصصه ايضا فرط حنانه وجمال خياله .

وعلينا ان لا ننسى ان دستوفسكي كان مريضا ، وعمله الادبي هو وليد اعصاب متشنجة مرتجفة ، وجسمه كان يحمل اكثر علامات الالام قسوة من تلك الصورة المفجعة للموت ، الا وهي داء الصرع ، وقد وصل دستوفسكي الى ذروة الفن بفضل مرضه الذي هو حسب قاعدة (ستاندل) ايجاد (احساسات جديدة) .

وكما قلنا فان مأساة حياته هي التي جعلته يصر على الايمان ، في لهجة التاكيد والغضب من المنطق العلمي وتفشي المادية الاوروبية ، وجعلت قارىء قصصه يحس من وقت لآخر ان ايمانه بالله يتزعزع . وعلى أي حال فان هذا الايمان جعل قصصه تذوب رحمة وحنانا واخاء ومحبة ، وجعلتنا نتحسس أغوار الانسانية بأجلى مظاهرها .

يرى بعض النقاد العالميين في قصة (الجريمة والعقاب) تعبيرا صارخا عن نزعة صاحبها الدينية ، وايمانه ان على الانسان ان يأثم وينال عقابه وعذابه كي تتطهر روحه وتتخلص من ادرانها ، وقد عدها بعضهم من أروع الاعمال الادبية في تاريخ الادب العالمي ، وتتميز بأمانتها في تصوير الاوضاع الظالمة التي تسيطر على المجتمعات الاقطاعية الفاسدة ، وتدفع الناس الذين يحيون فيها الى اقتراف الجرائم ، والتردي في حمأة الرذائل .

فبطل القصة ، راسكولينكوف تلميذ فقير الحال ، مفتون بنفسه ، يبحث عن مخرج لشقائه . يتعرف على عجوز مرابية تصبح بالنسبة له مصدر فكرة ثابتة تسيطر عليه الى حد مخيف ، فيتساءل : اية قيمة لوجود هذا الكائن المؤذي بالنسبة لوجوده ؟ أليس بوسعه اذا ما قتلها واستولى على نقودها ان يمد يد المساعدة الى امه واخته المهجورتين في الريف ، وان يدفع مصاريف دروسه ويصبح رجلا ذا مركز مرموق يفيد المجتمع ويستفيد منه بدلا من .. مرابية ممن يعتبر وجودهم في المجتمع جرثومة تنخر بجسمه .

هكذا كان يتساءل راسكولينكوف كلما خلى الى نفسه وتذكر امه واخته . امه التي يتصعد قلبها أنات وزفرات كلما رات ابنها الموهوب المتوثب طريد من الجامعة لضيق ذات يدها عن الانفاق عليه ، وأخته التي تنوي ان تقتل عاطفتها اذ تبيع نفسها لرجل يستذل جسمها وروحها معا .

واخيرا نضجت الخطة التي كانت تعتمل بكيانه ، وانقادت الحوادث تسهل له الامر كأنها متواطئة مع نواياه جميعها ، فهو مسحوب بثقل هائل ولم يعد بوسعه المقاومة او التردد فيما هو مدفوع اليه ، وها هو يمضي كالمجنون يضرب ويقتل ويسرق وقد تعاونت الظروف معه بصورة غريبة فلم تترك أي دليل خارجي يعرضه للشبهات .

لكن راسكولينكوف ما يكاد يتم جريمته حتى تبدأ الدراما الحقيقية لعقابه الباطني . فهو يرتاب في الدافع الحقيقي الذي دفعه الى القتل ، ولكن تأنيب الضمير وتفكيره المستمر في جريمته يعذبانه ويضطرانه الى الاعتراف للشرطة بجريمته لينال العقوبة التي يستحقها ويحصل معها على الراحة النفسية التي افتقدها .. ويصدر عليه الحكم بالسجن المؤبد في مجاهل سيبيريا بعيدا عن سونيا حبيبته ، التي عرف الحرية الحقيقية بفضلها ، وهذه الحرية ليست حرية متغطرسة ، فالانسان ليس هو الله وليس لاقوى الناس من وجود الا اذا كان الله موجودا. اما نكران الله فهو نكران الانسان لنفسه ، وما ارادة الانسان ان يصبح الها ، الا ارادته ان يموت كانسان .. ارادته ان يفنى من الكون وان يوجد ولا يعود موجودا في نفس الوقت .

وهذا السلام في احضان الله سيتوصل اليه راسكولينكوف بواسطة منحنى الجريمة . فهو صنع الشر وارتكب الخطيئة بدافع الكبرياء . وبذلك لم يحسن التصرف في الحرية التي كانت من نصيبه . لقد اراد ان يحطم ما كان انسانيا فيه ، واعتقد انه اذا ما عبر الجدار فستضمحل غريزة الخير هذه في قلبه قبل كل شيء ، واذا بغريزة الخير هذه هي التي تثبت وتقاوم عند المحنة اكثر من اي شيء وهي التي تعذبه وتعطفه نحو الارض من اجل خلاصه .

وايمانه بأن على الانسان ان يأثم وينال عقابه وعذابه كي تتطهر روحه وتخلص من ادرانها .

ويرى بعض النقاد في شخصية راسكولينكوف صورة حية لدستوفسكي في نزعته الدينية ، لقد لام النقاد دستوفسكي على انه لم يصور سوى المرضى والممسوخين ونعتوه بالنبوغ القاسي . وقد قدر الدكتور تشجن الاختصاصي الكبير في آدب دستوفسكي ان ربع الشخصيات الدستوفسكية مصابة بمرض عصبي . فنراه يعد ستة من هذه الشخصيات الشاذة في (الجريمة والعقاب) واثنين في (الاخوة كارامازوف) وستة اخرى في (الشياطين) واربعة في (الابله) واربعة في (المراهق) .

ولو سأل سائل : ما قولكم في امراض هذه الشخصيات وفي جنونها ؟ نجيبه بأن هذه ليست سوى اعذار فقط . لقد كان دستوفسكي مضطرا لكي يجعل القارىء يرتضي وجود هذه المخلوقات ويقبل منطق مناقشاتها وافعالها ان يدفعها بالجنون والسل وبالصرع والهستيريا .. لقد اتهمها ليبرىء ساحتنا وحملها هذا العبء الذي ترزح تحته ليزيحه عن كاهلنا .

وقد كتب دي فوج يقول : اننا سنتساءل مرة اخرى هل يحق للادب ان يتعلق باستثناءات مرضية مثل هذه . ولكن أين الاستثناء ؟ واين المرض ؟ لا بد للانسان الذي يكون مريضا من جسم يملكه ، ومخلوقات دستوفسكي لا اجسام لها . انها ليست سوى ناقلات لافكارنا الخاصة، ليست سوى افكارنا .

الجريمة والعقاب

كان قد انصرف عن الناس ، وانقطع عـن دراسته ، وانـزوى وسط همومه في شرود وذهول .. لقد ثقلت عليه الآلام حتى لم يعد يشعر بهـا ، فالمرض يضني جسمه ويذويه ، والضيق يتحجر على قلبه ويحز فيه، والخوف يشده ذهنه ويشتته في مهامه السود ، ذلـك ان الفـاقة والهزال يعتصران جسمه كما تعتصر الليمونة يد خشنة قوية. فأنت لا ترى هذا الشاب المرهف الشعور المثقف العقل الا حاسر الرأس ، شارد الفكر ، ينظر ولكن لا يرى ، وينصت ولكن لا يسمع ، ويفكر ولكن لا يعي !

وهو مع ذلك يدبر أمرا خطيرا .

هذه المرأة العجوز لم يبق لها من العمر الا أيام معدودة . وليس لهـا من الخلف ابن ولا حفيد . وهي مع ذلك تكتنز المال طبقة فوق طبقة . دون ان تنتفع به او تدع الناس ينتفعون به . والى جانب هـذه آمـال ممدودة ولكن الفقر يبتها ، واحلام مبسوطة ولكن الفاقة تقبضها ! بنى قوية تنهدم ، عقول متوهجة تنطفىء ، قلوب مشبوبة تبرد ، عزائم مرهفة تخور ، لأن شيئا واحدا ينقصها هو المال. مال هذه المرأة التي أوصت به بعد موتها لرهبان الدير! أطفال يتضورون جوعا وهم يساقون الى الفساد . نساء يبعن أجسادهن لكل شار فكأنهن خرق يمسح بها الرجال شهواتهم . رجال يكدون ويكدحون كالبهائم والأنعام . ويشقون بآثامهم التي لا نجاة لهم منها .. لماذا ؟ لأن هذا المال مكتنز في الجحور أو تحت الصخور .

لماذا لا ينقذ هؤلاء جميعا من الجوع والعري ، من المرض والموت، من الجهل والظلام ، من القسوة والاجرام ؟ أمن أجل حياة واحدة لا خير فيها، يدفن آلاف من الأقوياء النافعين ؟ فليقتلها ! انها ميتة واحدة ، ولكنها تبعث الى الحياة ألوفا من الموتى • انها جريمة واحدة ، ولكنها تنقذ الانسانية من آلاف من الجرائم •• فليقتلها وليأخذ مالها ، وليرصده لانقاذ هذه الانسانية المرهقة المكدودة • وهذه الدموع المسفوحة حين ترقأ ، وهذه القلوب المحروقة حين تبرد ، وهذه الخطايا الآثمة حين تغفر ، ستكفر عن قتل هذه العجوز التي تمتص الدماء ولا تؤدي نفعا ••

هكذا كان يفكر راسكولينكوف كلما تذكر أمه وأخته • أمه التي يتصعد قلبها أنات وزفرات كلما رأت ابنها الموهوب المتوثب طريدا من الجامعة لضيق ذات يدها عن الانفاق عليه ، وأخته التي تنوي ان تقتل عاطفتها اذ تبيع نفسها لرجل يستذل جسمها وروحها معا • أرسلت اليه أمه خطابا ذكرت فيه طرفا من الظروف السيئة التي تحيط بأخته دونيا • ففي العام الماضي دخلت بيت زفيد ريجايلوف مربية لاطفاله ، وكان صاحب البيت برغم تقدمه في السن متهافتا على الخمر متهالكا على النساء • فأساء معاملتها أولا ، وراودها عن نفسها ثانيا ، وحاول اغواءها بوعود شتى • وصرح لها بأنه لا يتردد في هجر امرأته واولاده اذا استجابت له • ولكنها أبت وتمنعت وآثرت الفاقة على ان تفكك عرى هذه الاسرة • ولكن سيدة البيت فاجأت زوجها وهو يغري الفتاة بالفرار معه، فاتهمتها واهانتها وطردتها من البيت • وذاع النبأ في المدينة فأخذ الناس ينظرون الى الفتاة وأمها شزرا ويتحدثون عنهما همسا • وأبى صاحب البيت أن يبقيهما عنده • ثم ثبت للسيدة بعد ذلك خطؤها عندما اطلعت على خطاب بعثت به دونيا الى زوجها تؤنبه وتنصحه ، وتدعوه ألا يستغل نكد حظها وضعف نصيرها في ارضاء نزوة هائجة • فجاءت السيدة اليها وعانقتها واستغفرتها والدمع ينهمر على

وجهها • وما ان وثق أهل المدينة من براءة دونيا حتى تبدلت نظرتهم اليها • وطلب اليها الكثيرون ان تعمل في بيوتهم • وتقدم لخطبتها رجل ملحوظ المكانة موفور الثروة فرضيت به الفتاة • هذا الرجل لوشين في الخامسة والاربعين من عمره ، على وجهه علائم الصلابة والكبرياء • وفي صوته نبرات الخشونة والجفاف ، وفي خلقه دلائل الغلظة والفظاظة • وهو يريد ان يتزوج دونيا ــ كما جابهها ــ لأنها فقيرة معوزة يستطيع ان يشعرها دائما بأنه محسن اليها وقد رضيت به الفتاة • وتختم الام خطابها بأنها على ثقة بأن في وسع ابنها ان يعتمد بعد اليوم على هذا الرجل • وهي وان لم تتحدث اليه في هذا الشأن ، الا انها على يقين من كرم هذا الرجل وعطفه على ابنها •

ما ان انتهى من هذا الخطاب حتى انهمرت الدموع من عينيه ، وعلا وجهه شحوب وتقطيب ، وخفق قلبه في عنف واضطراب ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة مريرة (هذا الزواج لن يتم ما دمت حيا) •

لا يا دونيا ! اني أدرك ما اختلج في فؤادك ، وما اضطرب عندما نهضت من فراشك وأخذت تزرعين أرض الحجرة جيئة وذهابا ، وتركعين امام الأيقونة المقدسة في تؤدة كأنها صبر الذبيحة عندما ترهف السكين • لا يا دونيا • انك قاسيت كثيرا ، ولكنك تريدين هذه المرة ان تشربي ثمالة الكأس ، تريدين ان تبيعي قلبك وهو كل ما تملكين لرجل لم تحبيه ولم تحترميه ، لرجل يريد ان يشعرك بأنه يحسن اليك بزواجك منه • وما ثمن هذه التضحية ؟ مصروفات الجامعة ، وثوب قشيب بدلا من هذا المهلهل ! لا يا دونيا ، دعينا نجوع ونظمأ ونعرى ، دعينا نبقي على قلوبنا المحطمة عزيزة منيعة •

وبدت امام عينيه صورة المرأة العجوز ، عندما قصد اليها منذ يومين ورهن عندها ساعة فضية هي كل ما بقي له من تراث ابيه • ومثلت الى جانب هذه الصورة المنكرة (الفكرة) التي أضنته وعذبته حتى نضجت وانتصرت

على كل اعتراض ابداه الضمير • لم يعد هناك سوى فكرة واحدة ، شعور واحد يملأ نهاره وليله : (بين الشقاوة والسعادة ضربة واحدة ينفجر بعدها النبع فياضا غزيرا) •

أخذ البلطة قاصدا اليها ، حتى اذا بلغ بابها وجف قلبه وشحب لونه وارتعدت أوصاله ، فحاول ان يتريث حتى تسكن ثائرته ويهدأ روعه ، كي لا يثير في نفسها الشبهة ، ولكنه لم يستطع ، بل دق الجرس مرة ومرتين ، فانفتح الباب قليلا ، فابتدرها قائلا : (مساء الخير ! لقد أحضرت لك شيئا ويحسن بنا ان نراه في النور) واندفع الى الداخل بلا استئذان ، فتبعته المرأة ولسانها معقول من الخوف •

ــ ماذا تريد ؟ ومن أنت ؟

ــ عفوا • أنا راسكو لينكوف ، أحد معارفك القدماء : أحضرت لك الرهن كما وعدتك أمس •

فرفعت عينيها الى عينيه وتفرست فيه بنظرات ملؤها سوء الظن ، فحسبها تهزأ به كأنها تعلم كل شيء ، وقال لها غاضبا :

ــ لماذا تحدقين الي هكذا ؟ اما ان تأخذي الرهن واما ان اذهب به الى مكان آخر ، فليس لدي وقت أضيعه •

ــ ما هذا ؟

ــ هذه علبة السجاير التي حادثتك عنها أمس !

ــ ولكن لماذا أنت شاحب الوجه هكذا ، ولماذا ترتعش يداك ؟ ماذا أصابك ؟

ــ مصاب بالحمى ، ولو كنت جائعة مثلي لكان لونك شاحبا كلوني •

ــ يخيل الي انها ليست من الفضة • ما أصعب هذه العقدة •

وأخذت تقطع الخيط المعقود حولها ، وأدارت ظهرها اليـه ، فتناول البلطة من تحت ردائه ورفعها بيديه الواهنتين ، وتركها تهوي علـى رأس المرأة في خور وبطء ، ثم عاودته قوته فانهار عليها طعنا واثخانا ، حتى تدفق الدم من جراحها مدرارا • ورأى الشاب فريسته قد امتدت على الأرض ، فانحنى على الجثة وهزها هزا عنيفا ، ثم تناول المفاتيح ، وذهب الى خزانتها في حجرة أخرى ، ولكنه شعر بالرجفة تتمشى فـي جميع أوصاله ، اذ مر بخاطره ان المرأة لم تمت وانما أغمي عليها ، فعاد الى الجثة وقبض على البلطة وهم بضرب فريسته مرة اخرى ، ولكنه لم يفعل ثم عاد الى الخزانة ثـانية وأخذ يحاول فتح الادراج ، ولكنه سمع وقع أقدام تتقدم نحوه ، فجمد في مكانه ، ثم انقطع الصوت ، ثم عاد ثانية كأنه أنين او زفير ، فوثب الى غرفة القتيلة ، حيث وقفت اختها تنظر الى الجثة مشدوهة الذهن معقودة اللسان •• فلما رأت القاتل امامها ارتعدت فرائصها ، وحاولت ان تجري وتصرخ ، ولكنها لم تتمالك الا ان تتراجع الى الوراء ، وهي تحدق الى القاتل بعين تكاد تثب اليه ، فهجم عليها ، واخترقت البلطة جبهتها ، وسقطت هامدة في سكون ••

لقد فاجأته الظروف بهذه الجريمة الثانية التي لا مبرر لهـا عنده من فكرة أو شعور ، والتي لم يعد بعدها قادرا على ان يعود الـى اكمال خطته بانتهاب اموال القتيلة الاولى ، كي ينقذ الانسانية المعذبة الفانية ؟ ولكنه فكر في النجاة ، فغسل يديه ونصل البلطة ، وأزال قطرات الـدم المنثورة علـى حذائه ، وهم بالهروب على عجل •

لم تكن هذه الجريمة الا رجع فكرة زخرت بها جنبات نفسـه أمدا ، حتى رسبت في أغوار قلبه منذ حين ، الى ان هيأت لها قسوة الحياة ان تطفو وتثور ، وتدفعه الى ان يلغ في الدم واهما انه يؤدي واجبـا ويبلغ رسالة ! هذه الفكرة التي عبر عنها في مقال نشره منذ شهرين فـي احدى المجلات

يعيد الآن شرحها وتفصيلها في مناقشة بينه وبين صديق له • هذا الصديق ساخط على الفكرة التي ينادي بها دعاة (العهـد الجديد) اذ يزعمون ان الجريمة مجرد احتجاج ضد شذوذ النظام الاجتماعي • وانه اذا نظمت الهيئة الاجتماعية تنظيما طبيعيا عقليا اختفت الجرائم • اذ لا يعود هنالك شيء يحتج عليه • اما فكرة راسكو لينكوف فتتلخص في ان المجتمع قسمان : قسم عادي عليه ان يخضع للعرف المتبع والقانون المتوارث • وقسم شاذ لـه ان يحتكم الى ضميره وحده اذا اراد ان يذلل عقبة قائمة في طريقه • فلو انه لا سبيل الى اظهار مكتشفات نيوتن الا بتضحية فرد أو عدة أفراد، فان لنيوتن، بل على نيوتن ، ان يقضي على هذا الفـرد أو هؤلاء الافراد ، كـي يؤدي واجبه نحو الانسانية كلها • ولكن ليس معنى هذا ان نهب نيوتن الحق في ان يسفح الدم ذات اليمين وذات الشمال • والواقع ان كل المتشرعين والقادة كانوا مجرمين• لأنهم بوضعهم قانونا جديدا تعدوا على القانون القديم الذي انحدر اليهم عـن اسلافهم وتلقـاه الاخلاف مقدسينه ، هؤلاء المتشرعون والقادة لم يتحرجوا في نصرة قانونهم الجديد عن اراقة دمـاء زكية ، دمـاء الابرياء الذين يدافعون مخلصين عن القانون القديم • كل رجل عظيم ، بـل كل رجل يشذ عن المستوى العادي ولو قليلا ، أي كل من يستطيع ان يقول (كلمة جديدة) هو مجرم بفطرته • فالفكرة الاساسية هي ان الطبيعة جعلت الناس فريقين : فريقا عاديا لا يزيد عن ان يكون مادة تعمل على انتاج مادة اخرى من نوعها ، وفريقا شاذا أوتي الموهبة على ان ينطق (كلمة جديدة) • الفريق الاول ، بوجه عام ، هم المحافظون بطبيعتهم ، وهـم يخضعون بـل ويؤثرون الخضوع • والفريق الثاني هـم الثائرون علـى القانون ، هـم الهدامون او هم الذين يؤثرون الهدم اذا أتتهم القوة على ذلك ، انهم يعملون بوسائل شتى على هدم الحاضر رجاء اقامة شـيء افضـل • ولكن الفريق العادي وهو السواد الساحق لا يبيح لهم حق الهدم بل يعاقبهم في رفـق

حينا وفي قسوة احيانا • الا ان هذا الفريق العادي ذاته يعــود الــى عبادة هؤلاء المجرمين انفسهم في جيل مقبل• الفريق العادي يكون رجال الحاضر• والفريق الشاذ يكون رجال المستقبل • الفريق الاول يعمر الدنيا ويحافظ عليها • والفريق الثاني يحرك الدنيا ويدفعها الى غايتها • ولكل منهما الحق في ان يعيش وان يؤدي وظيفته • انها حرب خالدة • الفريق العادي هــو العالم كله الا أفرادا قلائل يظهرون من عهد الى عهد وفق قانون محكم لا نتيجة مصادفات طارئة • وليست هناك علامات تعين أفراد كل فريق ، فقد يحسب فرد شاذ انه ليس الا فردا عاديا ، وهــذا لا يؤذي وان كــان يفقد الحياة عنصرا صالحا ، ولكن موضع الخطر هو ان يزعم شخص عادي أنــه ليكيرجس او نابليون ، انه هدام ، فيأخذ يذلل العقبات القائمة في وجهه ، ويبيح لنفسه على ذلك ان يهرق الدماء وينهب الاموال •

وتتوالى الحوادث تباعا :

قابل راسكو لينكوف منذ ايام قلائل رجلا عاطلا سكيرا ثرثارا ــ هو مارملادوف • طرد من عمله فأخذ يبيع من أثاث بيته تارة ، ويسرق من أمتعة زوجه تارة ، ليتردد على الحانات التي يعب فيها خمرا قذرة تنسيه همه وتقتل فراغه • أما امرأته كاترين ، وقد كانت بنت رجل ميسور العيش ، فتخيط ملابس الناس ليل نهار ، لتأتي لأولادها من رجل آخــر بلقمــات باردة ، مستعينة على شظف العيش ببنت زوجها من امرأة اخرى ــ هذه هي سونيا التي جرت مع راسكو لينكوف الشوط حتى آخره • راودتها امرأة فاجرة فبكت • فقالت لها زوج ابيها : (لعلك تعدين عرضك كنزا نفيسا تحتفظين به وتغارين عليه ؟) فنهضت الفتاة في البكور وعادت في المساء ومعها ثلاثون روبلا أعطتها لامرأة أبيها دون ان تلفظ كلمة • ثــم تمددت علــى الفراش ووجهها الى الحائط وجسمها يرتجف كأنه يزلزل • فجثت زوج أبيها الــى جانب فراشها ، وأخذت تقبــل قدميهــا المقرورتين وتبللهما بدموعها حتى

ادركهما النوم وهما متعانقتان • وأشفق على الرجل أحد الاثرياء ، فأعاده الى عمله ، فتبدل أمر هذا البيت ، بعد ان كانوا يقولون له : (اذهب ونم أيها البهيم) أخذوا اذا أراد النوم يمشون على أطراف أصابعهم ، ويسكتون الاطفال اذا صاحوا أو لعبوا ، ويقدمون اليه فنجانا من القشدة الخالصة كل صباح • وعندما قبض مرتبه أسرع الى زوجه وناولها اياه • وفي اليوم التالي سرق كل ما بقي معها ، وذهب الى الحانة حيث أضاع بذلته الرسمية، ولم يعد الى بيته ولا الى عمله ، وانما ذهب اليوم الى الحانة التي تعمل فيها ابنته ، وطلب منها كأسا من الفودكا ، فأعطته الفتاة ثلاثين كوبكا هي كل ما كسبته • ولم تقل شيئا بل نظرت اليه نظرة الملائكة عندما تبكي على آثام البشر • ثم يختم هذا المخمور قصته المفصلة المسهبة بخطبة رائعة : (أنا لا أبحث في قارورتك هذه الا عن الحزن والأسى والدموع ، من يشفق على الناس جميعا ، ويقرأ صفحات القلوب هو الحكم العدل وهو الرحمن الرحيم) • سأنادي في الآخرة : (أين البنت التي أشفقت على أبيها الفظ السكير ؟ أين البنت التي بذلت نفسها لتعين زوج أبيها القاسية المسلولة على قوت أطفال ليسوا من لحمها ودمها) وسيقول تعالى : (أقبلي وأبشري : لقد غفرت جميع خطاياك لأنك أحببت كثيرا) سيعفو عن سونيا ، وقد وثقت من ذلك عندما كنت عندها الآن • ثم يحاسبنا ويغفر لنا جميعا لا فرق بين صالح وشرير ! ثم يأتي دور السكارى فينادي : (تعالوا أيها السكارى ، أيها الخبثاء ، أيها الفجار) فيقول العقلاء الاذكياء : (ربنا لماذا تقبل هؤلاء؟) فيجيبهم الرحمن : (اقبلهم أيها العقلاء الاذكياء لأنه ما حسب احدهم ان رحمة الله واسعة هكذا ، وانهم أهل المكرمة كهذه) • ثم يمد ذراعيه فنلقي بأنفسنا بينهما ونذرف الدموع •

وبعد أيام دهمته عربة فهشمته سنابك الخيل • ونقله راسكو لينكوف الى بيته حيث لفظ انفاسه بين بكاء اطفاله الجياع وصراخ امرأته المكدودة •

ولم يستطع راسكو لينكوف الا ان يهب هذه الاسرة المفجوعة كل ما يملك وهي العشرون روبلا التي ارسلتها اليه امه •

* * *

زار لوشين اول ما هبط المدينة راسكو لينكوف وتحدث اليه عن أخته فلم يلتقيا عند رأي ولم يأتلفا في شعور • فهم كل منهما صاحبه أصلح الفهم ، الفتى يرى فيه تاجرا يستثمر أمواله في عائلة معسرة مأزومة، والرجل يرى فيه شابا يفر حريته وكرامته برغم ما فيه من عوز وهوان • وعرف الرجل ألا سبيل الى غايته الا ان يسعى بين الشاب وأمه وأخته • فبعث اليهما يصف كيف قابله الفتى في فتور وتجهم وكيف يتحدث الناس عن الفتى حديثا ممضا مخزيا • فهو يرهق أمه وأخته ويقتر على مأكله وملبسه، لينفق على فتاة ذميمة السيرة منهوبة العرض اسمها سونيا •

وجاءت الأم وابنتها الى بيترسبورغ ، وتحدثتا الى الفتى عن هذا الزواج • أما راسكو لينكوف فعزيز عليه ان يبيع اخته ويشتري بثمنها يسرا ورغدا ، أما دونيا ــ وقلبها قطعة من قلب اخيها ــ فتحاول دون طائل أن تقنعه بأنه مخطىء اذا حسبها تضحي بشيء من ذاتها لتعينه أو تعين أمها على عناء الحياة ، وانها لا تريد بزواجها من رجل ميسور كهذا الا أن تريح نفسها من الكد والكدح • وجاء لوشين ، وتعقد الموقف : فالسيدة التي اتهمت دونيا مع زوجها ماتت وأوصت للفتاة تكفيرا عن اساءتها اليها بمبلغ موفور من المال • واذا فقد الشرط الاول في الفتاة التي يريدها لوشين وهو حاجتها اليه ، واذا فهو يصارحها ويجابهها بما كان يقنعها به أخوها فتنكر عليه سوء ظنه •• وعلمت الأم والأخت ان راسكو لينكوف لم ير سونيا الا مرة واحدة ليلة ان مات أبوها ، وانه لم يعط العشرين روبلا للفتاة وانما لزوجة أبيها ، وفطنتا الى ان لوشين يسعى بينهما وبينه ليحقق غرضا لا سبيل اليه

ما دام أمره موكولا للفتى الأنوف ، فثارت الفتاة وانتهى الامر بينها وبين لوشين •

خرج لوشين وقلبه يتميز غيظا وحقدا على راسكو لينكوف • لقد هدت كبرياء الشاب حلم الشيخ هدة واحدة • انه شيخ تثور فيه أنانية الهرم ، ويعميه تهالك المحروم هذا العمر الطويل ، وها هي دونيا تستقبل حياة المرأة ناضجة الجمال مستوفية الأنوثة • انه شيء مليء ، وها هي دونيا تجهد وتكدح لتعول أما وأخا ، فلو أنقذها من الفاقة ولو أعاز أمها وأخاها على حياتهما لملكها حتى وان لم تحبه ، ولأفنت نفسها في ارضائه حتى وان لم تحترمه • وهو يريد أن يظهر ويذكر ويصل الى هذه الاوساط المترفة الرافهة ، ولكن نشأته الوضيعة وثقافته المحدودة تحولان بينه وبين ذلك ، وها هي دونيا يؤهل لها منبتها الكريم وحديثها العذب وثقافتها الشاملة ان تمهد له السبيل الى البيئات الرفيعة الممتازة • ولكن ها هو أخوها يضرب أمل الشيخ فيقوضه !

ومرت أيام وعرف لوشين سونيا ، فتاة وسيمة رشيقة ساذجة غريرة ، فلم لا يلبي بها الشيخ نداء جسمه المحروم ؟ •• شقية بائسة ؟ فلم لا يستغل حياتها النكدة في ارضاء نزوة عقل أضلته الشهوة المكبوتة الفوارة ؟ •• فهو لا يريدها زوجة بل خليلة • دعاها الى بيته في عطف ، وأعطاها بعض المال في حنو • وكان أحد جيرانه هناك ، ثم انصرفت ، فتبعها الى بيت امرأة أبيها حيث اجتمع نفر من الناس بينهم راسكو لينكوف • تقدم الرجل نحو الفتاة في خطوات ثابتة متئدة ، وقال لها في صوت حازم متزن : ان ورقة ذات مائة روبل فقدت منه اثناء وجودها هناك ، وهو واثق كل الوثوق بأن الفتاة هي التي سرقتها ، ولكنه يعدها أمام هؤلاء الاشهاد جميعا ، بألا ينالها بأي أذى ان هي أقرت بجريمتها وردت اليه هذه الورقة • شدهت الفتاة فوجدوا الورقة في جيبها ، وهنا صاح جار لوشين : (أنت وغد ! أنت الذي

دسست الورقة في جيبها، وقد رأيت ذلك بعيني هذه ، فظننت انك تريد ان تقدمها اليها خفية • انت الذي وضعتها بيدك هذه في جيبها وهي تهرول منصرفة) •

همّ الناس يريدون لطمه ، وتقدم راسكو لينكوف فقص على الجماعة كيف أراد لوشين أن يسعى بينه وبين أمه ليتزوج أخته التي تبغضه وتزدريه، وكيف يريد الآن ان يفترس بنتا غريرة تعول أرملة وأيتاما !ن لم تنله من نفسها ما يشتهي •

ولنعد الى راسكو لينكوف

انه لم يعد يفكر ولا يشعر بالجريمة التي تعذب نهاره وتؤرق ليله !• كيف واتته القوة على ان يهوي على رأس المرأة ، ويهشم جبهتها ، ويهز جثتها الهامدة ، ثم يثخن جراحها الدامية ، ويلغ في دمها المسفوح ؟ لماذا يستكين ضميره حتى يبرر الفكرة ويدبر الخطة ؟ ولماذا يثور الآن عليه ويزلزل كيانه زلزالا ؟ انه قتل مبدأ ، ولكن الناس يقولون : بل قتل انسانا• انه لم يجر الدم في شوارع باريس ، ولم يضع جيشا كاملا في الصحراء الكبرى ولم يهلك شعبا بأسره في حملة على موسكو ، ولكن الناس يعدونه مجرما ويعدون هذا بطلا• ما أبسط الفرق بين الجريمة والبطولة عند الناس! كلتاهما تصدران عن فكرة واحدة وتتخذان أسلوبا واحدا • ولكن احداهما جريمة لأنها أخفقت والثانية بطولة لأنها انتهت بنصر مؤزر !

ولكن جريمة ، ان استحقت ان تسمى جريمة ، أفظع وأشنع من هذه المعارك والمجازر • وهل تستطيع ان تتصور نابليون ــ الذي تجري الدماء المهراقة من تحت قدميه وتنعقد الارواح المزهقة فوق رأسه ــ وهو يقتل هذه المرأة العجوز مبتسما كما كان يبتسم عندما يفتك بالجيوش الزاخرة ؟ ان الجريمة لا تفارقه في صحوه أو نومه ، تقطع قلبه وتعذب فكره وتهضم

جسمه وتأتي عليه جميعا • ورأى الدنيا حوله ظلاما في ظلام : أمـه تبكي وكأنها تشعر بما جنته يد ابنها الآثم • أختـه تبكـي وكأنها تدرك خطيئته وتتوقع آلامها• أصدقاؤه يتحدثون اليه وكأنهم يستدرجونه الى الاعتراف • ولكن خلال الظلمة المتراكمة انبعث من عيني سونيا ضوء الرحمة • انهـا قطعة من الأسى والألم ، من التضحية والفداء • فتاة تبذل نفسها لتنفق على امرأة أبيها وأطفال ليسوا من لحمها ودمها • انها الضحية المقدسـة انهـا الشهيدة الخالدة ! في قلبها ذخر من الرحمة وفيض من الغفران ، على جبينها سمة الضحايا وفي عينيها نور الشهداء ! فلماذا لا يلقي بنفسه بين ذراعيها ويذرف الدموع ؟••• اعترف لها بجريمته • وقرأت له في الكتاب قصة :

قالت له (فلتكفر ، ولا سبيل الى التكفير الا الألم والتضحية • قبّل الارض التي أغرقتها بالدماء • وأقر بجريمتك امام الناس اجمعين • ثم اذهب الى هناك الى هناك حيث تحيا من جديد • خذ صليبي هذا فلنحمله معا ، لأنا سنقاسي معا •• فلنصل معا ، ولنطهر معا) •

* * *

ما زال زفيد ريجايلوف يذكر دونيا ويريدها • فتبعها بعد موت زوجه الى بيترسبورغ حيث اتصل بأخيها • ادرك الرجل في عين الشاب سرا خطيرا دفينا • فراقبه عن كثب • وبينما كان راسكـو لينكوف يعتـرف بجريمته لسونيا كان زفيد ريجايلوف يسترق السمع من وراء الباب • عرف كـل شيء وأفضى الى دونيا بكل شيء ، ثم وضع فجأة أخيها في يدها : ان هي استجابت لكان أخوها بعد ثلاثة ايام في طريقه الى امريكا • وان هي تمنعت عليه كـان على أخيها ان يختـار لنفسه رصاصة في الرأس أو سجنـا في سيبيريا • ولكنها أبت ، فأطلق الرجل اليائس الرصاص على نفسه •

وقر رأي راسكو لينكوف على ان يعترف

فذهب الى امه :

ــ امي ! لا تخافي ولا تجزعي • جئت انبئك بأنـي سأذهب تـوا ، فاصغي الي • أمي هل تحبينني غدا كما تحبينني اليوم • مهمـا ألمت بـك الاحداث ، ومهما أتتك عني الأنباء ؟ جئت اؤكد لك حبي الدائم ، ويسرني ان اقول هذا في وحدتنا هذه • جئت اقـول لـك انك وان كنت ستشقين وستقاسين ، فان عليك ان توقني ان ابنـك يحبك الآن ، وسيحبك غدا أكثر مما يحب نفسه • حسبي هذا ، حسبي ان « ابدأ » بهذا الحب •

بكت الام • انها تشعر بالآلام المكبوتة في قلب ابنهـا ، وتتنبأ بمـا تتقاضاه هذه الآلام من شبابه الغض وشيخوختها المتهافتة •

ــ لا أفهم ما تريد ، اني أرى فـي قلبك حزنـا مدخرا مدفونا ، لقد أحسست به منذ رأيتك اول ما جئنا هنا • وهأنذا لا أفكر الا فـي هـذا • وكذلك اختك ظلت ليلة امس كلها تحلم وتهذي • وقد ادركت شيئا ولكني لم افهم تماما • وكل ما أحس به الآن هو أني اتوقع شيئا • وهأنت تكـاد تنذرني به فأين انت ذاهب ؟ أتقصد أن تذهب بعيدا ؟

ــ نعم

ــ هذا ما أراه • وهل آتي معك ، استطيع أن أرافقك ان كنت فـي حاجة الي ، وكذلك دونيا وسونيا ، اني اشعر انها بنت لي ، ولكن الى أين انت ذاهب ؟

ــ وداعا يا أمي •

ــ اليوم ؟•• صاحت الام كأنها لن تراه الى الابد •

ــ لم يعد في وسعي ان ابقى ، يجب ان اذهب توا •

ــ أولا استطيع ان آتي معك ؟

ــ لا ، ولكن اسجدي لله ، وادعي الله لولدك ، فصلواتك تبلغه •

ـ ولكنك ستأتي ثانية ؟

ـ نعم •• سآتي •

ـ وهل تذهب بعيدا ؟

ـ بعيدا جدا •

ـ ماذا ينتظرك هناك ؟ عمل ؟

ـ ما يرسله الله ! وانما اطلبي رحمة الله لابنك !

وبكيا ، وودعها وداع الابد ، وأسرع الى غرفته فقد انتهت عزيمته على ان يخلص من الامر قبل مغرب الشمس ، وهناك كانت تنتظره اخته •

ـ منذ الصباح وأنا هنا مع سونيا • كنا ننتظرك معا •

ـ جسمي متخاذل يا دونيا ، متعب جدا ، أحب لو استطيع ان أتمالك نفسي •

ـ أين كنت هذه الليلة ؟

ـ لا اذكر تماما • انت تعلمين يا اختي اني أريد ان يقر قراري مرة واحدة • سرت على ضفاف النيفا • وخيل الي ان انتهي من الامر هناك • ولكني لم استطع •

ـ شكرا لله ! هذا ما كنت أخشاه انا وسونيا • اذا ما زلت واثقا في الحياة ؟ شكرا لله •

ـ لست واثقا من الحياة ، ولكني كنت الآن ابكي بين ذراعي امي • لست واثقا من الحياة ولكني اطلب اليها الآن ان تذكرني في صلاتها لله •

ـ هل كنت عند امي ؟ هل قلت لها ؟ اني واثقة انك لم تقل لها شيئا ؟

ـ لم أقل لها شيئا ، ولكنها فهمت ، سمعتك تتكلمين في نومك ، وادركت شيئا قبل ذلك •• لعلي أخطأت في ذهابي اليها ، ولست أعرف لماذا ذهبت !

اختي دونيا ، أنا مجرم فاغفري لي ، وداعا ، ازف الوقت ، وسأذهب الآن الى مصيري المحتوم ، لا تتبعيني ، بل ابقي مع امي، هذا رجائي الاخير، لا تدعيها وحدها ، انها ستموت ، وتجن ، فكوني معها دائما لا تبكي علي ، سأحاول ان اكون رجلا حتى ولو كنت سفاحا ، وقد اكون اسما يوما من الايام ، والآن وداعا ! وداعا !

ما زالت صورة سونيا وهي ترسم الصليب على صدره ماثلة أمام عينيه ، وما زالت كلماتها المتقطعة المرتجفة وهي ترسم أمام عينيه الحياة الجديدة تدوي في أذنه : (فلتكفر ولا سبيل الى التكفير الا الألم والتضحية . قبل الارض التي أغرقتها بالدماء ، واقر بجريمتك امام الناس اجمعين ثم اذهب الى هناك ، الى هناك ، حيث تحيا من جديد) .

توجه الى صديق له في دار الشرطة ، وهمّ ان يعترف اليه امام الناس المجتمعين ، ولكن صديقه لم يدع له فرصة يتمالك فيها نفسه ويستجمع قوته ، بل اخذ مع الجماعة وهي ترعد وتهضب ، الى ان انتهت بهما شجون الحديث الى انتحار زفيد ريجايلوف !فاجأه النبأ ، فأذهله وأنساه أمره ! فانصرف ، فرأى سونيا عند زاوية الطريق تترقب الكلمة الفاصلة ، فرجع .

ـ رجعت ثانية !؟ هل نسيت شيئا ؟ ماذا حدث ؟ انت مريض . كرسي ! اجلس هنا . ماء !

ووقع راسكو لينكوف على المقعد ، وحدق في الناس بعين حائرة ، وانفرجت شفتاه البيضاوان عن كلمات كأنها هذي الحالم : (انا الذي قتلت المرأة العجوز واختها) .

ماتت امه حسيرة ، وصبرت اخته واجمة ، وهناك في سيبيريا ، الى جانب سونيا ، بدأ يحيا من جديد .

غوغول الساخر

كان نيكولاي ف. غوغول من اعظم الكتاب الروائيين في عصره ، وقد جمع في اسلوبه القصصي والروائي بين الخيال والواقع في صفة خاصة تميز بها عن اقرانه من الادباء الروس ، وجاءت قصصه صورة طبق الاصل لما كانت متردية به روسيا آنذاك من جهل وفوضى ، جعلاها تعيش حياة اقرب الى القرون الوسطى منها الى القرون الحديثة .

في هذه البيئة المتخلفة ولد غوغول عام ١٨٠٩ ليجعل من ادبه سلاحا يشهره على الجهل والطغيان ، وليذود به عن الطبقة المثقفة الواعية التي اخذت تنمو شيئا فشيئا في روسيا القيصرية ، بعد ان اعطتها الثورة الفرنسية درسا في مفهوم الحرية والكرامة الانسانية لم تنعم به روسيا يوما من الايام .

وجاءت قصصه ورواياته تعكس اتجاهه الفلسفي هذا في موضوعات كانت سابقة لعصره منها : امسيات في مزرعة قرب ديكانكا (١٨٣١) ، والمعطف (١٨٣٥) ، وتبع ذلك بروايته التمثيلية الساخرة (المفتش العام) سنة ١٨٣٦ والنفوس الميتة • وفي هذه الروايات اظهر غوغول عبقرية ادبية نابغة جعلته يتبوأ مكانة مرموقة في عالم الادب الروسي ، قبل ظهور تولستوي ودستوفسكي وغوركي في هذا الميدان ، ومما يجدر ذكره ان هؤلاء العمالقة قد تتلمذوا على غوغول وبوشكين ، وظهر ذلك واضحا في أدبهم وطريقة معالجتهم مشاكل بلادهم .

كان غوغول ينهج اسلوبا تهكميا صارما ذا مرام فلسفية ساخرة ، مما حببه الى شعبه المتعطش الى من يعالج مشاكله الاجتماعية ، معالجة تبرز نواحي النقص في الادارة الحكومية التي كانت تنهكه وتقض مضجعه ، وقد وصل غوغول في اخريات حياته الى حد الهوس في قوته الابداعية . وتوفي عام ١٨٥٢ ليتابع تلاميذه ومريدوه رسالته التي ستظل تقرأ على مدى الاجيال لما حوته من ظرف وتهكم وابداع .

المفتش العام

تسربت الاشاعات الى مختار المنطقة بأن مفتشا بعثته الحكومة يطوف في انحاء اقليمه متنكرا ليرى كيف يقوم حكامه بالامر والنهي بين الناس ، وعلى أي وجه يؤدي موظفو الحكومة مهام اعمالهم • فدعا اليه اولي الامر في دائرته ليفاوضهم في هذا النبأ الذي اخذهم علـــى حين غـــرة ، وليهيىء معهم الوسائل التي تخفي عن المفتش مـــا ينزلونه من العسف بالناس ، وما يأتونه من الاهمال في العمل، وما يقبلونه عن أنفسهم من الزلفى والارتشاء• فاجتمع في بيته قاضي المحكمة، ومفتش التعليم ، وطبيب المستشفى، ووكيل الصدقات ، ورئيس الشرطة ، الذين وجفت قلوبهم هلعا من هول ما انبئوا • ان المختار قد استشعر الخوف منذ ليلة أمس حين تراءى له في حلمه فأران اسودان أشد السواد ، ضخمان أقصى الضخامة !

يرى القاضي الذي لم يقرأ غير خمسة كتب او ستة ــ وان كان يأبى الا ان يذكر مؤلفيها ويقتبس من أقوالها كلما تحدث ــ ان الحرب بدأت تنذر بمقدماتها ، وان الحكومة تريد ان تتبين ما قد يدبره اعداؤها من الفتن والمكايد • فيقاطعه المختار بأن ليس هناك من يخشى منه خيانة او تمردا في قرية بينها وبين الحدود أمد لا تقطعه ولو عدوت ثلاث سنوات متواصلة ، ومع ذلك فالذي يهمه ويهمهم هو ان يظفروا من مفتش الحكومة بالرضى وحسن القبول •

فهو ينصح الطبيب بأن يرتب مستشفاه وينظمه ، فيضع فوق كل سرير اسم المريض وتاريخ مجيئه للمستشفى ، ويكتب اسم المريض باللاتينية ، ويقدم لمرضاه الادوية اللازمة • وان كان الطبيب يرى ان لا فائدة منها ، فهو مقتنع بأن خير دواء هو ترك المريض وشأنه لأنه اذا كان سيشفى فهو سيشفى على كل حال ، واذا كان سيموت فهو سيموت على كل حال • وهو لذلك يبيح للمرضى ان يدخنوا دخانا من الصنف الحار القوي ، بدل ان يعطيهم هذه الادوية الغالية النفقة التافهة القيمة •

وينصح القاضي بأن ينظف فناء المحكمة الذي اتخذه لتربية الكلاب ونشر الغسيل ، وبأن يبحث عن دواء لهذا الموظف الذي يجبي الضرائب لأن رائحة كريهة تنبعث منه دائما • اما الرشوة فالقاضي لا ينكر قبوله لها ، ولكن أي رشوة هي ؟ انها لا تزيد عن جرو صغير من فصيلة الكلاب المشهورة في الصيد ! انه لا يأخذ فراء يساوي خمسمائة روبل ولا شالا لزوجته مثلا • فيقاطعه المختار الذي يفهم تلميح القاضي بأن الرشوة أهون على كل حال من ضلال عقيدته وزيفه في الدين ، فهو لا يؤمن بالله ولا يذهب الى الكنيسة وعندما يتكلم عن خلق العالم يقف شعر رأس المختار هلعا ••

وأنت يا مفتش التعليم ، ان مرؤوسيك من المثقفين الممتازين ، ولكن اخلاقهم شاذة • فهذا المعلم ذو الوجه السميك لا بأس من ان يخيف تلاميذه بطلعته المتجهمة وسيماه المعقدة ، اما من يقابل مفتش الحكومة بهذه الصورة المخزية فالله وحده يدري ماذا تكون العاقبة • ومدرس التاريخ ، انه رجل واسع الاطلاع ، ولكنه حين يتحدث عن ابطال التاريخ تنتابه حمى عنيفة فينسى نفسه وينسى من حوله • لقد سمعته مرة يتكلم عن الاسكندر الاكبر ولا استطيع ان اصور كيف كان أمره ، خيل الي ان نارا موقدة قد شبت في البيت ، فقد قفز من مكانه والقى المقعد على الارض بأقصى قوته •

ان الاسكندر بطل عظيم ، ولكن هذا لا يستدعي تخريب ممتلكات الحكومة .

ثم يدخل رئيس البريد وهو يؤكد ان مجيء مفتش الحكومة دليل قاطع على ان الحرب ستنشب بين روسيا وتركيا ، فيفرح القاضي لان نبوءته كادت تتحقق بكلام رئيس البريد . ولكن المختار واثق ان المفتش لا بد آت للتحقيق في تقارير رفعها تجار المدينة ضده . وهو يرجو رئيس البريد ان يفتح كل خطاب يرد اليه ، فربما كانت هناك شكاو الى الحكومة من سوء معاملته وعدوانه على الناس . فيطمئنه رئيس البريد بألا يخشى شيئا من هذا فقد اعتاد ان يفتح كل خطاب يصل اليه، ليمتع نفسه بما فيه من الحديث الظريف وليحيط علما بما يجري في العالم ! انه يكتسب من المعلومات بقراءة بعض الخطابات اكثر مما يكتسب من قراءة الجرائد الكبيرة ، فمثلا هذا الخطاب الذي يصف فيه احد الضباط لصديق له مرقص المدينة ، انه خطاب ظريف حقا ، حتى انني احتفظ به ، أتريد أن اقرأه لك ؟

ثم يندفع نحوهم رجلان من فلاحي القرية وهما يلهثان من التعب ويتحدثان في تقطع واضطراب ويتسابقان في الادلاء بما لديهما من النبأ العظيم . هذا يريد ان يتحدث فيقاطعه الآخر ، فاذا أخذ هذا يتكلم اسكته الاول . والمختار يلحف عليهما ان يخبراه بما يهدىء فريصته المرتعدة أو يرد اليه قلبه المخلوع . وأخيرا قال أحدهما وسط مقاطعة زميله وتسابقه ، بأنه عندما ترك المختار مع زملائه يتشاورون في أمر المفتش ذهب الى فندق القرية ليتناول الطعام بعض الطعام وهناك وجد شابا على وجهه علائم الحزم والتروي . فسأل صاحب الفندق عنه فقال له انه موظف من بيترسبورغ وانه هنا منذ اسبوعين ولكنه لم يدفع له شيئا ما . فلما سمع هذا أحس بهاتف في قلبه يهمس : هذا هو الموظف .. مفتش الحكومة .

دهش المختار أشد الدهش ، وأشفق على نفسه كل الاشفاق . مفتش

الحكومة العام مقيم في قريتنا ؟! مفتش الحكومة بيننا منذ اسبوعين ؟! ايها القديسون ! ايها الشهداء ! لا نجاة لي من هذا ! في هذين الاسبوعين جلدت امرأة الشاويش بالسياط ، ولم تعط للمسجونين جرايتهم ولم تنظف الشوارع مرة واحدة ، كلها قذارات ومشاجرات • ثم اشار وكيل الصدقات بأن يذهبوا جميعا الى الفندق لمقابلة المفتش العام ، ورأى القاضي ان يذهب رجال الدين اولا ، فقد جاء في كتاب (حنا البناء) •• ولكن المختار رأى ان يذهب كل منهم الى عمله ينظمه ويهيئه ، بينما يذهب هو وحده الى الفندق على ان يتأهب موظفوه لاستقبال المفتش العام • ثم يصدر طائفة من الاوامر الى رجاله : فليقل كل واحد منكم انه سعيد ومغتبط والا فسأعطيه شيئا بعد انصراف المفتش يجعله سعيدا ومغتبطا ، واذا سأل عن الكنيسة لماذا لم تبنَ مع انه قد جمعت لها التبرعات منذ خمس سنوات فلا تنسوا ان تقولوا انها بنيت ثم تهدمت ، اياكم ان ينسى احدكم ويقول بغباء انها لم تبنى •

فليذهب هذا ليقف عند قنطرة القرية فهو مديد القامة مهيب الطلعة • وليفق هذا الذي نام منذ ليلة أمس حين ذهب ليقبض على جماعة من المتشاجرين فرجع معربدا مخمورا • آتني بقبعتي وسيفي ، الا يرى هذا التاجر اللعين ان سيفي قد أكله الصدأ ، فلم لا يرسل الي سيفا جديدا ؟

* * *

موظف بسيط ، حديث السن ، أنيق المظهر ، قد ترك عمله في بيترسبورغ ، وأخذ يطوف مع خادمه في أنحاء الريف ، حتى انتهت به رحلته الى هذه القرية بعد ان أضاع ما معه من المال القليل • نزل في فندقها منذ اسبوعين يأكل وينام دون ان يدفع شيئا ، منتظرا ما يرسله اليه أبوه ، ولكن اباه قد ابطأ ، وصاحب الفندق قد ارتاب في امره ، فأبى ان يقدم اليه والى خادمه شيئا من الطعام قبل ان يفي بما تراكم عليه من الدين •

اما الخادم فقد اضطجع على سرير سيده ، وأخذ يتسمع ما يحدثه الجوع في معدته من الاصوات وهو يتمتم بالسخط على سيده الأرعن الطائش .. (كان معه من المال ما يكفي لأطول من هذه الرحلة ، ولكنه سيء التصرف ، يذهب الى الفنادق فيأمرني ان احجز له أجمل الغرف ، وان آتي له بأغلى الطعام ، كأنه ثري مليء وليس كاتب سجلات .. ان اباه يعطيه كثيرا من المال ، ولكنه يبعثره في استئجار عربات يجول فيها هنا وهناك ، وفي الذهاب الى مسارح ومراقص يقضي فيها لياليه الطوال ، وبعد ذلك يرسلني الى السوق لأبيع بذلته الجديدة .. والله انه يسير احيانا وليس عليه سوى جاكتة ومعطف ! ... وما الذي أتى بنا الى هنا ؟ ما أجمل الحياة في بيترسبورغ ، حيث لا ترى منظرا خشنا ، ولا تسمع كلمة نابية . هناك لا يخاطبك الناس الا بقولهم : (يا سيدي) وهناك تلتقي بالخادمات الجميلات واذا كنت متعبا استطعت ان تركب عربة ولو لم يكن معك شيء فلكل بيت باب امامي تدخل منه ، وباب خلفي تفلت منه .. اما هنا ، فها هو صاحب الفندق يأبى ان يعطينا ما نحفظ به رمقنا . آه لو يعطبني قليلا من الحساء !) .

ثم يدخل سيده وقد أخذه الجوع بشدة ، فيأمر خادمه ان يأتي له ببعض الطعام ، فيأبى الخادم ويتردد ، لأن صاحب الفندق قد قال له : (انكما من المحتالين الماكرين ، لقد مر علي كثير من امثالكما الذين يأكلون وينامون ثم يفرون هاربين، سأبلغ امركما الى المختار ليزج بكما في السجن) ويأتي خادم الفندق فيخبره بأن سيده قد رفض ان يقدم له طعاما قبل ان يدفع ما عليه ، وانه قد ذهب الى المختار ليشكوه ويستوفي دينه فيحلف عليه ان يذكر انه لم يذق شيئا منذ حين ، وان يقنع سيده بأنه ليس فلاحا يستطيع ان يبقى يوما بلا أكل ... واخيرا يأتون له بغذاء من الحساء ، وأي حساء ! شيء كالماء الراكد في رائحته ، وكالماء المصفى في مذاقه ، وفيه

تطفو قطع من اللحم ، قد أخذ منها اللحم وأبقي فيها الريش !•• فيسخط ، ويأنف ويتمنع ، ولكنه جائع جدا ، وصاحب الفندق ينتظر منه ان يسترجع الطعام ممتنا ، واذا فهو مضطر الى ان يعب الحساء عبا وان كان مشمئزا وان ينهش اللحم نهشا وان كان متقززا •

ثم يدخل خادمه فينبئه بأن مختار القرية أتى يسأل ويستقصي عنه : (واذا فصاحب الفندق قد رفع امري الى المختار ، وها هو آت ليقبض علي ويلقي بي في السجن • ولكنني سأقاومه ! أيعرفني من أنا ؟ سأصيح في وجهه : كيف تتجرأ علي ، كيف •••) وهنا يدخل المختار مهيبا ، فيلقاه الشاب شاحبا مرتعدا ، هذا يزعم ان المختار جاء ليزج به في السجن حيث يلقى النكال الوانا وذاك يزعم انه ماثل بين يدي مفتش الحكومة كأسير •• موقف حرج دقيق ، فصاحبنا السائح يدفع عن نفسه تهمة الاحتيال ويؤكد انه سيفي بدينه حالما يصله المال ويشكو صاحب الفندق الى المختار لأنه يأتيه بشرائح من اللحم كأنها قدت من الخشب • فيستسمحه المختار ويبرىء نفسه لأن اللحم الذي يباع في السوق جيد طازج ، وهو لا يدري من أين يأتون باللحم في هذا الفندق • ويقترح عليه اذا كان غير راض عن هذا الفندق ان ينتقل الى مكان آخر • فيحسب السائح انه انما يريد بذلك المكان الآخر (السجن) فيضطرب ويفزع ثم يثور ويهدد : (لماذا ؟ ••• كيف تجرؤ على ذلك ؟ لماذا ؟ ألست موظفا في بيترسبورغ • لا ، لن اذهب ولو جئت بفرقة كاملة •• سأكتب الى الوزير مباشرة) فيرتعد المختار ويهلع ••• يا الهي الرحيم ! انه رجل قاس ! لقد عرف كل شيء •

والرعب قد اذهله ، فهو يتوهم ان اهل المدينة قد انبأوه بسيرته المنكرة في ايقاع الظلم وانزال العسف بهم ، وفي مد يده الى اموالهم يستلبها عنوة، وفي قبوله الرشوة على ذمته وضميره • وهو اذا يدفع عن نفسه التهم المزعومة وينتحل الاعذار : (ان مرتبي لا يكفي • لا يكاد يكفي للشاي

والسكر وحدهما • واذا كنت آخذ الرشى فانها اشياء تافهة لا تستحق ان تذكر • اما قصة امرأة الرقيب التي يتهمونني بجلدها فقصة مختلقة اختلقها اعدائي) فيجيبه السائح الذي لا يقل ذهولا وغفلة بأن هذا لا يعنيه • لأنه اذا كان قد جلد امرأة الرقيب فليس في وسعه ان يجلده هو كذلك •• وهو مع ذلك سيدفع ، سيدفع عندما تصله النقود ، اما الآن فليس معه أي شيء•

يخطر للمختار ان المفتش ربما يشير من طرف خفي الى قبوله للمال لو قدم اليه • فيتشجع ويتجرأ ويقول : (اذا كنت يا سيدي في حاجة الى نقود أو أي شيء آخر فاني الآن في خدمتك ، ان واجبي ان أساعد كل من يجيء الى مدينتنا) فيجيب السائح على عجل : (نعم • اقرضني بعض النقود لادفع ما علي لصاحب الفندق • اني لا احتاج الى اكثر من مائتي روبل • وربما اقل) فيسارع المختار الى تقديم المبلغ شاكرا لله ان انجاه من هذا المأزق الحرج العصيب •

ثم يقول المختار لنفسه : (اني لم اظهر له حتى الآن اني اعرف انه مفتش جاء ليرى اعمالي • فلأحدثه ـ على اعتبار انه زائر عادي ـ عما أقوم به من مهام الامور • ولا بد انه سيصدقني اذ لا داعي لأن اكذب عليه ما دمت لا أعرف انه المفتش العام) فيقول للسائح : (اني جئت اليوم الى هذا الفندق لان علي ان اتحقق دائما من ان زائري مدينتنا يؤدى ما يجب لهم من الراحة والاحترام • ولست كغيري من المخاتير الذين لا يعنون بأعمالهم • وقد كوفئت على عملي بهذه الفرصة السعيدة) •

والرجل متضايق من هذه الحجرة التي لا ينفذ اليها الضوء الكافي ولا يتجدد فيها الهواء النقي، بينما الحشرات الصغيرة تدب على أرضها كالافاعي، وتنهش في جسمه كالضواري • فيدعوه المختار الى ان ينزل في بيته، يدعوه في خجل واضطراب • ثم يعتذر عن دعوته بأنه ساذج بسيط اذ في هذه الدعوة من الشرف والفخر ما لا يقوى على حمله • ولكن السائح يقبل

مغتبطا فيرسل المختار الى زوجه كي تعد عشاء فاخرا وغرفة انيقة ينزل فيها الضيف العظيم .

* * *

منذ ساعة كاملة وامرأة المختار وابنته تنتظران من يأتيهما بنبأ يهدىء روعهما الحائر . ويطمئن نفسهما الجازعة . حتى يتراءى لهما عن بعد شبح رسول المختار اليهما ، فتستوضحاه الامر وهما تطلان من النافذة . فقد ضاق ذرعهما عن ان تنتظرا حتى يجتاز العتبة ويصعد السلم . ويدخل الرجل وهو يباهي بأنه أول من اكتشف امر المفتش ويطمئنهما برضاه عن المختار واغتباطه بأعماله (نعم في أول الامر قابل المختار مقابلة جافة . كان مغضبا لأن كل شيء في الفندق سيء . ولكنه لما تبين ان المختار بريء من التقصير والاهمال غيَّر ظنه ولله الحمد) . ثم تستوضحه الزوجة والفتاة عن صورة هذا المفتش : أهو متقدم السن أم حديثه ؟ أهو ابيض البشرة ام اسمرها ؟.. ثم تأخذان في اعداد الخمر وتهيئة الغرفة ، وانتقاء الملابس التي تستقبلان فيها ضيفهما — ثم يأتي المفتش يتبعه المختار فوكيل الصدقات ومفتش التعليم واثنان من الاهالي . اما المفتش فمبتهج بما قابلوه به من اكرام وفادته والحفاوة بمقدمه ، مغتبط بتطوافهم به على مرافق المدينة واطلاعه على سير الامور بها ، على نقيض المدن الاخرى التي لم تطلعه على شيء من مرافقها . أما المختار فيؤكد انه ليس كغيره من المخاتير الذين لا يلتفتون الا الى أهوائهم الخاصة ، فهو لا يفكر الا في شيء واحد ، ذلك ان يعمل على اكتساب رضى رؤسائه بالخلق الحسن والعناية بالعمل . والمفتش معجب بهذا العشاء الفاخر الذي تناوله في المستشفى حيث لم يكن هناك سوى نفر قليل من المرضى ، فيقول له وكيل الصدقات ان معظم المرضى قد عوفوا بفضل ما يكلأهم به من العناية ، لا بفضل ما يصرف لهم من الدواء ، فمنذ ولي العمل هنا والمريض لا يكاد يدخل المستشفى حتى يخرج صحيحا معافى .

والمختار يؤكد مرة اخرى انه ، برغم ما يثقل كاهله من اعباء العمل ، يعمل على اداء واجبه على خير الوجوه . فهو لا يني يفكر — حتى وهو راقد في فراشه — كيف يستطيع ان يحظى برضى رؤسائه ؟ وهو لا يبغي جزاء على عمله ، وانما يريد ان يرضي ضميره ، اما الفخار فشيء جذاب ، ولكن اية قيمة له الى جانب رضى الضمير ؟ فيجيبه المفتش بأن هذه الآراء كثيرا ما تعرض له وتستغرق تفكيره ، وكثيرا ما يعبر عنها في فصول نثرية وقصائد شعرية ..

ثم يسأل عن ملاهي المدينة وأنديتها ، فيفطن المختار الى ان المفتش يريد ان يخدعه ويوقعه ، فيعلن ان مثل هذه الاندية لم يسمع بها قط في هذه المدينة ، وانه هو لم يمس بيده ورقة واحدة طول حياته، وانه عندما يسمع عن هذه الالعاب يشعر بالمرض يدب في أوصاله ، حتى انه بنى ذات مرة لاطفاله بيتا من أوراق اللعب فبات الليل كله والرؤى المروعة تقض مضجعه .. وهو لا يدري كيف يقتل الناس اوقاتهم الثمينة في مثل هذه السفاسف .. فيتمتم مفتش التعليم : (واللعين قد كسب مني مائة روبل ليلة امس فقط !..)

وتقبل زوجة المختار وابنته ، فتتحدثان مع المفتش عما لقيه في الريف طوال حياته القاسية من المشاق التي لم يعتدها رجل مترف مثله .. وبدأت الخمر تلعب برأسه ، فأخذ يهذي كما يهذي كل أرعن أهوج ، يرى من حوله ناسا يزعمون الكاتب المنزوي المغمور رجلا هائلا خطيرا .

(لعلكم تحسبونني كاتبا بسيطا .. لا فان بيني وبين رئيس العمل صداقة عظيمة ، وكثيرا ما يربت على كتفي ويقول : (تعال يا ابني تناول الغذاء معي) . أما مكتبي فلا أمكث فيه اكثر من دقيقتين او ثلاث ، تاركا ذلك الكاتب ، الفأر المسكين ، يكتب تارة ويهرش اخرى ، وعندما أدخل يلحقني الخادم على السلم ومعه فرشاة لينظف حذائي ..) ويلتفت الى

المختار ومن معه وهم وقوف في خشوع ، ويطلب منهم ان يأخذوا مجالسهم والا يتهيبوا فقد فطر على التبسط والتواضع : (اني احاول كل المحاولة ان أمر في سبيلي دون ان يلحظني أحد . ولكنني لا استطيع ان افلت من التفات الناس الي . ان هذا محال . فما ان اظهر في أي مكان حتى يأخذ الناس في الحديث عني . وذات مرة خرجت ثلة من الجنود من معسكرها لتحيتي فقد حسبتني قائد الجيش كما قال لي صديقي الحميم ضابط الفرقة) . وكلما غيبته الخمرة عن صوابه ، اغرق في ادعائه : (وانا اعرف جميع الممثلات الجميلات وقد كتبت بعض القطع المسرحية وارتاد دائما الاندية الادبية ، وبيني وبين بوشكين صداقة قوية . انه شخصية ظريفة) . فتسأله زوجة المختار ألم ينشر شيئا من آثاره في المجلات فيقول : نعم ! اني ابعث بعض ما أكتب الى المجلات ، وقد نشرت فيها (زوج فيغارو) ، (روبرت الشيطان)، (نورما) وغيرها من القطع التي لا اتذكر اسماءها الآن .. وفي الواقع لم يكن بي ميل قوي الى الكتابة ، ولكن (مدير المسارح) قال لي : تعال أيها الرجل العجوز واكتب لنا شيئا .

فقلت حسنا . ولماذا لا اكتب ؟ وفي ليلة واحدة كتبت كل شيء مما اثار دهشة الجميع .. اني أوتيت ملكة عجيبة ، وكل ما نشر باسم (بارون برامبوس) ، (باخرة الامل) (تلغراف موسكو) قد كتبته أنا .

(وبيتي في بيترسبورغ من أجمل البيوت ، ما من أحد يجهله ، فاذا جاء احدكم الى بيترسبورغ فلا بد ان يأتي الي وينزل عندي . وكثيرا ما أقيم بعض الحفلات . كيف أصفها ؟ فقد ترى في احداها على المائدة بطيخة ثمنها سبعمائة روبل . والحساء يؤتى به من باريس في سفينة بخارية . ولا تمضي ليلة واحدة دون ان ادعى الى حفلة مع وزير الخارجية والسفير الفرنسي والسفير الانجليزي والسفير الالماني . وعندما ينتهي العشاء

والرقص اسرع الى سكني في الدور الرابع •• اوه ! نسيت انه في الدور الاول) •

(وما اجمل ان تروا صالة البيت حتى في مطلع النهار قبل ان اصحو من نومي • وقد ازدحمت بالامراء والوزراء وهم يتدافعون بالمناكب • ويطنون كأنهم خلية من النحل ••• واحيانا يأتي الوزير •••)

فيهب المختار ومن معه واقفين منتصبين • أين هم الآن ؟ امام من هم الساعة ؟ والشاب ما يزال يهذي ويهرف : (وقد كنت رئيسا لمصلحة حكومية حينا ما • ولم أقبلها الا بعد الحاح والحاف ، عندما لم يجدوا من يصلح لها سواي وحينما كنت اسير بين المكاتب كانت الارض تزلزل زلزالها • الكل مرتعد الفرائص مضطرب الخطى وانا لا اخشى احدا ، حتى رئيس الوزراء ذاته • لاني اذهب كل يوم الى (القيصر) وسيعينونني قريبا قائدا عاما للجيش الروسي) •

واخيرا سقط مغشيا عليه بعد ان افقدته الخمر توازنه ؛ فرفعوه في رفق وكأنهم في حلم مروع وأخذوه الى الحجرة المعدة له ، وقد انعقدت ألسنتهم من هول ما هم فيه : هكذا يكون الرجل والا فلا ! لقد كدت أموت خوفا ووجلا • فهذه اول مرة اقف فيها امام رجل عظيم كهذا • أظن انه قائد • لا لا ، ان القائد ليرفع قبعته تحية له ، ألم تر كيف يتحدث عن رئيس الوزراء ؟

وتتنازع زوجة المختار وابنته : فالام تزعم انه كان لا يحول نظره عنها، والفتاة تدعي انه لم ينظر الا اليها خصوصا عندما كان يتكلم عن آثاره الادبية واصدقائه السفراء • فتقول لها الام : ان كان قد نظر اليك فبعين فارغة لا معنى لها ، لعله قال لنفسه : (فلألق عليها نظرة هي الاخرى ••) والمختار واثق من ان كل ما سمعه لا ريبة فيه ، اذ من المحقق ان من تغيبه

الخمر عن رشده لا يختلق شيئا من عنده وانما يبوح بما يكتمه في صحوه • فكل ما ينطوي عليه قلبه ينطق به لسانه •

* * *

وفي الصباح جاء الى بيت المختار قاضي المحكمة ووكيل الصدقات ورئيس البريد ومفتش التعليم واثنان من الاهالي مرتدين ملابسهم الرسمية • جاءوا يدبرون أمر مقابلة المفتش العام ، المفتش الذي يذهب الى القصر الملكي ولا يعبأ برئيس الوزراء ولا يصادق الا السفراء ••• وها هم يتهامسون في وجل ، ويتشاورون في حيرة ، ويفكرون في اضطراب ، حتى يقر رأيهم على ان يضعوا في كف المفتش شيئا من المال •• ولكن من منهم تواتيه الجرأة على رشو هذا العظيم ؟ أنقدم له ما نقدمه على سبيل تذكار من أهل المنطقة كلها ؟ أم نقدمه على انه مبلغ جاء به البريد من مصدر مجهول ؟ أم يتقدم كل منهم بما معه على حدة ؟ وحبذوا جميعا الفكرة الاخيرة ، ولكن من منهم يجد في نفسه الشجاعة على البدء بهذه المجازفة ؟ وكيل الصدقات الذي تناول المفتش غذاء الامس على مائدته ؟ أم مفتش التعليم الذي يمثل الثقافة والنور ؟ ام القاضي الذي تتدفق منه البلاغة كما تدفقت من شيشرون من قبل ؟ ويستصوبون جميعا تقدم القاضي عليهم اذ هو يستطيع ان يتحدث مع المفتش عن أي شيء ، حتى عن برج بابل •

يدخل القاضي على المفتش وساقاه تضطربان من حرج الموقف وروعته، ويسأله المفتش عن الوظيفة التي يتقلدها ، والمدة التي قضاها فيها ، والنيشان الذي انعم به عليه ــ ثم يلمح في يده المبلغ الذي أعده لتقديمه فيسأله ما هذا ؟ فيفزع القاضي ويهلع •• لقد وقع فيما كان يخشاه ، لا جزاء له الا غياهب السجن ، لقد ضاعت حياته سدى ! ولكن المفتش يقول له : لعلك تريد ان تقرضني هذا المبلغ ، اذ انت تعلم اني قد انفقت كل ما كان معي • فيتشجع القاضي ويقدم اليه المبلغ شاكرا لله ان ينقذه •••

ويأتي بعده رئيس البريد فيحدثه المفتش حديثا تافها عن هذه المدينة الصغيرة والفرق بينها وبين موسكو وبيترسبورغ • ثم يقول له المفتش : (ان شيئا غريبا قد حدث لي هنا ، فقد نفد كل ما كان معي من المال • فهل تستطيع ان تقرضني ثلاثمائة روبل ؟) فيسارع رئيس البريد الى تقديم المبلغ ويخرج سالما •

ويقبل مفتش التعليم مأخوذ القلب ، مصفر الوجه ، متعثر الخطى ، ومن خلفه من يشجعه ويدفعه دفعا • ويدعوه المفتش الى الجلوس وهو يقدم له سيجارة ، فيتحير ويتردد : أيأخذها أم يدعها ؟ انه لم يتوقع ان يقدم اليه المفتش سيجارة فيعد نفسه لهذا الحادث ! ثم يقدم اليه شمعة ليشعل السيجارة فترتعد اوصاله وترتجف يداه ولا يدري كيف يشعلها فتقع من يده وهو ذاهل مأخوذ • ويسأله المفتش : ايهما يفضل اللون الاشقر أم اللون الاسمر ؟• فينعقد لسانه ولا يحير جوابا • والمفتش اللجوج يلحف عليه أن ينبئه أيهما يفضل • والمسكين لا يهمس الا بكلمات متقطعة مبتورة •• واخيرا يقول له ما قاله لسابقيه من نفاذ نقوده وحاجته الى ثلاثمائة روبل فيدفعها له داعيا الا يريه الله مفتشا آخر ••

ويليه وكيل الصدقات فيحدث المفتش عن اهمال موظفي هذه المدينة جميعا • فالقاضي مثلا لا عمل له الا تربية الكلاب في فناء المحكمة ، وأخلاقه ــ والشهادة لله برغم انه قريبه وصديقه ــ فاضحة منكرة ، فله صلة مريبة بزوجة أحد الاهالي ، فما ان يخرج زوجها الى عمله حتى يثب القاضي الى بيته ••• واولاد هذا الرجل يشهدون على هذا الخزي بصراحة اذ منهم من هو صورة طبق الاصل عن القاضي !•• ورئيس البريد ومفتش التعليم كيف تكل اليهما الحكومة هذه الاعمال الخطيرة ؟ وهو على استعداد لأن يرفع الى المفتش تقريرا عن سير الامور في هذه المنطقة • والمفتش شاكر له ما يتجشمه في وضع هذا التقرير الذي سوف يجد في قراءته متعة ولذة

اثناء رحلته الطويلة • ثم يهم بالانصراف فيناديه المفتش ويقول له ما قاله لمن قبله ولا يدعه الا وقد أخذ منه اربعمائة روبل •• ويدخل اثنان من الاهالي فيسألهما اقراضه الف روبل• ولكنهما لا يملكان سوى خمسة وستين روبلا، فيأخذها مكتفيا بها • وهما لا يريدان الا شيئا واحدا هو أن يذكر اسميهما أمام اصدقائه الوزراء والسفراء ، وكم يكونان سعيدين لو يقول للقيصر : (في مدينة كذا يعيش اثنان من الاهالي اسمهما كذا) وهو يعدهما بذلك وعدا صادقا !••

ثم يخلو الى نفسه فيقول : (لا بد اني حدثت هؤلاء الاغبياء ليلة امس حديثا غريبا • وها انا ذا اخذت منهم هذا المبلغ الكبير ، انها حكاية ممتعة سأكتب الى صديقي فلان عنها) • وبينما هو يكتب رسالته هذه اذا بصوت جماعة من الناس يصيحون ويصخبون • هؤلاء تجار المدينة جاءوا يرفعون شكواهم ضد المختار الذي يأخذ عروضهم غصبا ، ويبتز أموالهم عنوة ، فيشير المفتش لرجل الشرطة الذي يصدهم عن الدخول ، فيندفعون نحوه رافعين عرائضهم اليه ، فيأخذ احداها ويقرأ في صدرها : (الى صاحب المعالي وزير المالية •••) ويتقدم احدهم فيبسط شكوى رفاقه من هذا المختار القاسي • انهم يؤدون واجبهم نحوه بالاحترام ، ولا يفترون عن ارسال الملابس اللازمة لزوجه وابنته ، ولكنه جشع نهم يريد ان يستولي على كل ما يعرضونه في محالهم •• والمفتش مغضب ساخط على هذا المختار الذي لا بد من نفيه الى سيبيريا جزاء وفاقا • ثم يقدمون اليه هدية من السكر والخمر ، ولكنه لم يعتد ان يقبل الرشى ، على انه لا بأس من ان يقبل منهم قرضا بمبلغ ثلاثمائة روبل • فيجمعون من بينهم خمسمائة روبل ويقدمونها اليه مستدرين رحمته مستصرخين عدالته •

ثم يسمع صوت امرأة تنتحب وتولول ، وتدخل امرأتان وهما تبكيان أمرّ البكاء : هذه امرأة صانع الاقفال التي أخذ زوجها الى الجندية عدوانا

لأنه لا يملك ما لا يرشو به المختار ولا زوجة المختار ، وامرأة الرقيب التي جلدها المختار بالسياط ، فقد اتهموها ظلما بالتشاجر في السوق ، وهي من هول ما قاست لم تستطع ان تجلس منذ يومين • ويصد سيل الوافدين ، وترجأ شكاواهم الى الغد ، ويشير عليه خادمه بأن يغادر هذه المدينة حالا قبل ان يفتضح أمره ، وحسبه من المال ما خدع عنه هؤلاء السذج ، فيأبى ويتردد أولا ، ثم ينتصح برأيه ثانيا ، ويرسله الى البريد ليبعث الى صديقه بخطابه الممتع عن هذه الرحلة الغريبة الموفقة •• وليستأجر عربة يبرحان فيها المدينة توا • وتدخل ابنة المختار على المفتش فيلقاها مغازلا : اتأذنين لي ان أقدم لك كرسيا ، وان كنت تستاهلين عرشا ؟ والفتاة تخشى ان تضيع عليه وقته او تصرفه عن عمله • فيقول لها ان عينيها أثمن واجمل من كل وقت وكل عمل ! والفتاة تحدثه عن الجو الصحو الرائق • فيقول لها ان شفتيها أعذب وأرق من كل جو ! والفتاة تريد ان يكتب لها ـ وهو الاديب النابه الموهوب ـ شيئا من الشعر فيقول لها انه يحفظ كثيرا جدا من القصائد ولكنه لا يذكر منها الآن سوى بيتين ، وهو مع هذا يقدم لها بدل الشعر حبه وغرامه !•• والفتاة تخشى ان يسخر بها هذا الشاب المثقف المترف ، وتخشى ان يخدعها عن نفسها هذا الشاب الثري الموسر ، بينما هو يبثها نفثات حبه المضني ، ويستدر قلبها رحمة بهواه المبرح ، ويقوم اليها فيغتصب منها قبلة عنيفة حارة ، فتتراجع عنه وجلة حذرة وتبتعد عنه مغضبة نافرة فيخر عند قدميها متضرعا مبتهلا •• بينما تدخل أم الفتاة فترى المفتش العام ساجدا عند قدميها ••! فتذهل وتبهت ، وتدهش وتعجب، وتسخط وتحنق، وتدفع الفتاة بعيدا غاضبة هائجة ، ويبقى المفتش ساجدا عند قدميها •• انه لم يعد يرى شيئا سوى الحياة والموت : الحياة ان حنت عليه واشفقت ، والموت ان هي قست عليه وتجنت ، والمرأة تظن انه لا يقصد الا ابنتها • فيؤكد لها انه لا يحب سواها ، لا يحب سوى الام!•• وتعود الفتاة ثانية

فترى المفتش ساجدا متوسلا امام امها ، كما كان ساجدا متضرعا امامها هي! ولكن المفتش يعود فيطلب من الام الا تقف مانعا بينه وبين ابنتهـا وبـين سعادتهما .. ويأتي المختار فتفجؤه امرأته بأن المفتش يطلب يد ابنته! فيزمجر في وجهها ويتجهم . ويعتذر الى المفتش عن بلاهتها ، ولكن المفتش يؤكد ان الفتاة قد تيمت قلبه وشغفته حبا ، والا حياة له الا الى جانبها ، فان رفض أبوها وحال بينه وبينها فليس أمامه الا ان يقضي علـى نفسه منتحرا ، وعند ذلك فليسألوا المختار عن المفتش القتيل في بيته .. والمختار لا يعي ما يرى ولا يصدق ما يسمع ، ولا يدري ماذا يقول الا ان يبارك زواجهما .

ويأتي الخادم وينبئه بأن العربة قد أعدت ، فيقول للمختار انه ذاهب الى زيارة عمه في قرية مجاورة وانه عائد غدا ، ويسأله المختار أليست بـه حاجة الى شيء من المال ؟ فيقول : (لا بأس اعطني اربعمائة روبل) ويأخذ المبلغ ، ويودع زوجته ، ابنة المختار ، واباها وامها ، ويستقل العربة مـع خادمه ..

* * *

أكان يحلم المختار بهذا المجد والنعيم ؟ يصاهر المفتش العام للحكومة الذي يقابل القيصر ، ويصادق السفراء ، ولا يأبه لرئيس الحكومة ، وسيعين قريبا قائدا عاما للجيش الروسي !.. اما امرأته فلا ترى الامر شاذا أو بدعا فكثيرا ما تعرفت الى هذه الاوساط الرفيعة المترفة ، وكثيرا ما توقعت لابنتها هذا الزوج الثري !..

والمختار يخشى ان تضطره الحياة الجديدة الى ان يعيش في العاصمة الى جانب صهره . واذا فسيفضي هذا الزواج الى اخلاء وظيفته . فتضحك منه امرأته ، اذ ليس من المعقول الا يعينه زوج ابنتها وهو الذي لا يعز عليه عرض ولا ترد له كلمة في منصب خطير ممتاز .. منصب قائد مثلا فيزدهيه

الفرح ويستخفه ، فما اجمله في مظهر القواد ، وعلى صدره الاوسمة والنياشين ، وبيده السيف الصقيل البراق ، وعلى ذراعه الشريط الاحمر او الازرق .. فتجيبه امرأته على عجل : (الازرق أنسب وأوفق لك من غير شك) وان كان زوجها يرى ان الاحمر لا بأس به !.. وغدا يركب العربة الفخمة تجرها الجياد المطهمة ، ويذهب الى دار حاكم المقاطعة ليتناول الغداء، بينما يقف مختار ما بين يديه ، خافض الطرف حاسر الرأس !.. وامرأته لا تخشى الآن شيئا الا ان ينسى غدا وهو في مجالس الامراء والوزراء فينطق بهذه الكلمات الجافة النافرة التي اعتادها لسانه امام الفلاحين الاجلاف .

ويؤتى اليه بالتجار الذين بسطوا الى المفتش أمرهم ، فيحدثهم ساخرا بتصرفهم هازئا بشكواهم ويلقي اليهم بنبأ زواج ابنته بالمفتش . وهو يرغو ويزبد وهم يأسفون ويندمون . وهو يهدد ويتوعد، وهم يتوبون وينيبون. وهو يتنمر وهم يتضرعون ويتوسلون ففي وسعه ان يزج بهم في غياهب السجون او يلقي بهم في فيافي سيبيريا .

وذاع النبأ في أنحاء المدينة فتوافد رجالها ونساؤها ، وما منهم الا من يكذب وينكر ثم يدهش ويعجب ثم يصدق ويهنىء وهو يوسط المختار في طلب وظيفة او يستشفعه في قضاء حاجة! والمختار وزوجه يشرحان للمهنئين كيف عقدت الخطبة . فصهرهما مثقف مهذب لا يعبأ بالمال ولا يأبه للمكانة وانما يريد الفتاة لانها جميلة النفس رصينة الخلق . والام قد أبدت له انهم لا يستحقون هذا الشرف الرفيع فخر امامهما ساجدا يبثها حبه ويستدرها رحمتها ، والاب بهت وتردد فما كان منه الا ان هدده باطلاق الرصاص على نفسه . فلم يسعهم الا ان يرضخوا لأمره ويستجيبوا لرغبته .

وجو المدينة ثقيل ضيق ، فسيتركونها الى بيترسبورغ حيث يستقبلون حياة الرغد والنعيم الى جانب صهرهم العظيم ، وسيعين المختار قائدا في

الجيش • ولكنه رغم منصبه الخطير ، لن ينسى ان يشمل رفاقه بعطفه ، وان يحيط زملاءه برعايته •

وهنا يدخل رئيس البريد ملقيا بنبأ غريب (ان هذا الشخص الذي زعمناه مفتشا ليس بمفتش) ! دهش الجميع وبهتوا • وانكر المختار وثار ، ولكن رئيس البريد وقد اعتاد ان يفتح كل خطاب يصله ، قد فتح الخطاب الذي بعثه المفتش المزعوم الى صديقه قبل ان يبرح المدينة • وها هو يصف لصديقه رحلته ونفاد نقوده ، ويبين كيف زعموه مفتشا فجاءوا لتحيته وطافوا به على مرافق الحكومة • ويشرح كيف احتال على هؤلاء السذج البسطاء فسلبهم من المال الشيء الكثير • واذن فقد خدعهم هذا السائح عن انفسهم ، واذن فقد اتخذهم شاب طائش سخرية وأضحوكة وضاعت عليهم الاموال الكثيرة عبثا • واذن فقد تهدمت الصروح التي شيدت على الرمال !

ويدخل احد الجنود ويخبر المختار ان مفتشا أتى من بيترسبورغ يحمل اوامر من الحكومة وانه ينتظره في الفندق •

جالز ورذي

حكمه على الرعاع

يعالج جون جالزورذي في مسرحيته الرعاع روح انكلترا خلال الفترة التي اعقبت استعمارها للبلاد الواقعة في قارتي آسيا وافريقيا ، ويناقش « الرأي العام » بشخص ستيفن مور الـذي يتحدى الحكومة والمجتمع والرعاع ، ليقـول مـا عقدت عزيمته ان يجابه بـه هـذه الفئات ، التي مـا فتئت تستعر لاخضاع الشعب الطيب المسالم في القارة الافريقية لمشيئتهـا ، وهو في فلسفته هذه لاقى الصعاب الجسام ، بل انـه ذهب الضحية فـي الاخير اجلالا لعقيدته الثابتة، ومبدئه الذي ابتناه لنفسه .

وقد وفق جالزورذي ايما توفيق في تصوير هـذه الشخصيات المتطاحنة المتفاوتة القوة في ردع مـا عزم ان ينفذه مور ، وهـو السياسي المحنـك والوزير النابه ، في فضـح السيـاسة الاستعمارية التـي انتهجتها حكومته في اخضاع شعب وديع ، لا يريد دخيل ولا بديل لحكامه ، ولكن الرعاع الذين يسيرون كما تشاء الاهواء ، والذين لا تنتظمهم عقيدة يرون في شخص كمـور يخالف برأيه الحكومة التي لا تخطىء في سياستها شيئا كبيرا على ادراكهم ، فيتطاحنون عليـه ويودون بحياته .

* * *

كتب جالزورذي هذه المسرحية والسياسة الاستعمارية الانكليزية علـى أشدها ، فجـاءت صيحة حق من بلاد تدعي انها حامية الحرية ، فلاقت اقبالا كبيرا من القراء ، وتهافتت عليهـا دور النشر ، ولا زالت مسرحيته هذه الى اليوم تلاقي المزيد من القراء الذين امتعهم جالزورذي في مسرحياته وقصصه الكثيرة ، وقد نال جائزة نوبل للاداب عـام ١٩٣٢ وتوفي بعدها بسنة فكـان خسارة فادحة للادب .

ترك جالزورذي عددا مـن القصص منهـا : جوسلين ، وقصة الفاريسيين ، وقصة صاحب الاملاك ، والاب السيد ، فندق الهدوء ، المحكمة ، للايجار ، ولـه قصتان صغيرتان في حجمهما بعض الشيء هما : صيف كصيف الهند يقضيه فرد من عائلة فورسايت ، واليقظة ، ولـه مـن

القصص الطويلة : البراري ذات الزهور ، عذراء في الانتظار ، عبر النهر . ومن مسرحياته : الرعاع ، الصندوق الفضي ، البيت الريفي ، الاخاء ، اللعبة الغادرة .

* * *

تنعكس في كتابات جالزورذي اعتزازه بنفسه وشعوره الخفي بالخجل ، وهو في ذلك يعبر عن احترامه الشديد بالعدالة والنظام والمساواة بين الناس ، كما نلمس في قصصه روح انكلترا في المدة الطويلة التي حكمت فيها الملكة فكتوريا ، وتتناول نواحي القوة والضعف في حياة الانكليز .

ان جالزورذي تراث ادبي خالد لانكلترا .

الرعاع

هذه الحياة المجهدة الضنينة تبسط أمامه سبلها ممهدة فسيحة ، وهذا المجتمع المتدافع المتهافت يوسع له في زحمته صدرا رحيبا ، فلــه المكــان الملحوظ والمستقبل المأمول ، وله الشباب الناضر والثراء الموفور ، وله الجنة التي خلقتها زوجته من حبها وأمومتها ! فلم لا يعتصر من حياته ما تحفل به من ترف ونعيم ، ولم لا يعتصم من لفح الهجير بهذا الظل الوارف . ولـِمَ يدع هذا اللين والرفه الى حيث تناله العوادي وتأزمه الشدائد ؟ ولكنهــا الفكرة التي توهج ضوؤها في فجاج عقله ، قد استحالت الى عقيدة تحتشد بها حنايا قلبه ، فأخذت عليه السبيل التي يندفــع الناس فيها دون روية أو تفكير ، وأبت عليه أن يخلد الى ما يبتغيه الناس مــن دعة ورخاء ، وفرضت عليه أن يلقي بيده الى حيث تصوب اليه السهام فتهلكه ! وهذا هو الايمان الذي تتضاءل في محرابه الدنيا الآهلة بالآمال ، وهذا هو المؤمن الذي يفتح صدره لما يضمره المصير المحتوم من غير رهبة ، فلا يخشى ان يضيع المستقبل الموعود ، وأن تشرد الزوجة والاطفال . فقد نذر لعقيدته أن يجهر بها وان تألب عليه الناس جميعا ، وأنذر خصومه بأن يصمد لهم وان تضافروا عليه بما فيهم من بأس وسفه .

* * *

اعتدت قبيلة من قبائل الزنج المنبثة في غابات افريقيا على جماعة مــن التجار والمبشرين الذين أوفدتهم انجلترا الى القارة المظلمة ، ليستغلوا خيرها

ويستبدوا بأمرها باسم المدنية والدين • فأثار هذا الحادث حفيظة الشعب المعتز بالحديد والنار ، وأتاح الفرصة للسياسة الطامحة الى النصر والغلبة • فعبئت الجيوش وارسلت ، وحشدت البوارج وسيرت ، ليثأر شعب المدينة والنور ممن يدفعون عن وطنهم عادية المغير ، وليقضي رسل الدين والكرامة على من يأبون ان تلقى حريتهم عند أقدام الطغاة • وفي وسط هذا الشعب الناقم ، وتجاه الحكومة المعتدية وقف مور ليعلن في الناس ما دبر وراء الحجب من كيد أثيم ، وليظهر للملأ ما يحملون من وزر حين يلغون في هذا الدم البريء •

يناقش الرجل جماعة من أهله وصحبه ، فيما اعتزم ان يجهر به غدا في قاعة البرلمان ، ويعلن اليهم الموقف الذي آلى على نفسه ان يتخذه تجاه هذه الحرب الظالمة • هم يرون ان هذه الحرب لا تشهر على شعب يستأهل العطف والانصاف ، وانما على شراذم من الزنوج الهائمين في فيافي الارض، وان هؤلاء الذين يحيون كالسوائم العائثة لم يرعوا حرمة من هجروا أوطانهم لينشروا في ظلماتهم ضياء المدنية والدين ، وان لا سبيل الى ان تلقى انجلترا بمن ذهب بينها ليرفع لواءها في مجاهل الدنيا الى عصابات تشرب دماءهم وتنهش لحومهم ، وان ليس هناك من ينكر ان انجلترا قد خطت بالبلاد التي بسطت يدها عليها خطوات واسعة • وهو يرى ان الشعب الذي يذود عن وطنه وهو أعزل ويدافع عن حريته وهو أكشف ، جدير بأن ترعى حرمته ، وان التجار الذين يجازفون سعيا وراء المال ، والمبشرين الذين يرصدون جهودهم لنشر الدين ، يجب ان يعدوا أنفسهم لحمل الأذى وبذل الدماء ، وان الشعب الضعيف انما يلقى من الشعب القوي ما يلقاه الحمل من الذئب لا ما يلقاه الطفل من أبيه • ومن بين مجادليه حموه وهو قائد شيخ يرى ان حق الوطن يحتم قتال من يعتدي على بنيه ، وأخوه وهو قسيس يعتقد ان المؤمنين في حل من دم الوثنيين نشرا للدين • ولكن

(مور) يرى ان رد البادىء بالعداء لا يجيز الاخذ بالثأر ، وان الخصومة في الدين لا تبيح سفح الدم • على ان الامر لـم يعد يـحتمل الجدال في الآراء ، أو يتسع للنقاش في المذاهب • فمور يأبى الا ان يشذ لنفسه وحده عما اجتمعت عليه كلمة شعب فتنته القوة عن الحق ، وأضله الطموح عـن القصد ، والا ان يتخذ لنفسه طريقا موحشة لا يلتقي فيها بغيره لانها تنتهي بسالكيها الى مصير تخاف رواهنه • وأهله وصحبه ينكرون عليه ان يضع نفسه حيث يتخذه اعداء المتنمرون حجة لهم على وطنه • وينذرونه منذ اليوم بما سيلقي من الشعب الحانق من جزاء وفاق • وهم حين يقولون له ــ كي يثنوه عن عزمه بوسيلة أخرى ــ انهم يعجبون ويألمون اذ يرون سليل أسرة نبيلة مجيدة ، وصهر عشيرة مجاهدة مكافحة ، يتناسى حق وطنه المهضوم ، ويتجاهل كرامة شعبه المذلة ، حذر الحرب وهو لها ، يرد عليهم غاضبا حازما بأنه أول من يندفع الى وطيس المعمعة عندمـا يلقـى أمامه جيشا جرارا ، لا شعبا ضعيفا وديعا • ثم تقول زوجته ــ بعد ان ينصرف ابوها ومن معه ــ ان خطبته غدا لن توقف حربا حشدت جنودها وعبئت ذخائرها ، ولـن تثني حكومة دبرت الامر منذ أمد بعيد لتثأر ممن لم يخشوا بأسهـا وسطوتها وانما تؤلب عليه زملاءه في الوزارة حتى يكره على اعتزالها ، وتثير ضـده هؤلاء الرعاع الذين لا يتحرجون عن تسفيهه وايذائه ، وتنفر منه جميع من حوله • فيرد عليها بأنه انما يريد ألا يسجل التاريخ على بلاده هـذه الكلمة الرهيبة (واعلنت الحرب الباغية دون ان يحتج عليهـا أحـد مـن رجال الحكومة) • ثـم يخلو الرجـل الى نفسه ، ويراجع الكلمة الخطيرة التي أعدها ، فيهم بتمزيقها يائسا حائرا ، ولكن الكلمات التي تدوي في أعمـاق ضميره ، تنساب من فيه متقطعة متناثرة ، ثم يعلو بهـا صوته قليلا قليلا • حتى يقول : (اننا ادعينا ان بلادنا هي التي تكفل الحرية • وتضمن العدالة وهي التي تناهض الظلم وتجاهد ضد الاضطهاد • فهل نهمل هذا المجد ونضيع هذا الفخار ؟ أم هل نضحي بشيء من حقنا لنزيح عن هذا المجد ما أثقله من

صخور وأحمال ؟ هلاّ ندع هذا الغرور ، هلاّ تتنزه عن هذه الأهواء التي ستقذي عين من يقرأ تاريخنا بعد ان تنكشف عن وجه الحقيقة هذه الاباطيل؟ اننا نفيح اثما وعدوانا على بلاد عاشت حرة منذ أحقاب طويلة ، اننا نقضي قهرا واقتدارا على شعب يحب وطنه كما تحبون وطنكم . ولست بقادر على أن أحجز لساني هذه الليلة عن النذير بهذه الحرب المنكرة . انـي أحب وطني ، ولهذا أرفع صوتي جهيرا داويا . وهذه القبائل التي تعتصم بالجبال والهضاب ، وتأوي الغابات والآجام ، تبذل نفسها للحرب راضية سخية ، فتظفر برجالنا ناقمة مغيظة . وهذا ضمير العالم كله يقسو علينا لأننا نعدو ، ويحنو عليهم لانهم ضعاف . واذا فنحن نأثم في حق الانسانية أولا ، ونؤلب علينا ضمير العالم ثانيا ، ونواجه شعبا ولوعا بالقتال متفننا في أسبابه ثالثا . وسوف تقضي علينا العدالة التي ندعي اننا حماة ديارها بأقسى الاحكام ، وسوف تلقي علينا المدنية التي ندعي أننا نعلي دعائمها أمرّ الدروس) .

وبعد قليل تأتيه رسالة من حميه ينبئه فيها ان الحرب قد أعلنت ، ثم لا يلبث ان يأتي الرجل ليسأل « مور » عن موقفه بعد ان قضي الامر . ولكن أين مور ؟ عندما بلغه النبأ الرهيب ، انسل من بيته خفية وذهب تـوا الى قاعة البرلمان ، ووسط الجمع الحاشد الثائر ألقى الكلمة الحاسمة ! ثم عاد الى بيته حيث لقيته زوجته واجمة ذاهلة ، ثم آذنته بمصيرها معه منذرة محذرة ، ولكن الرجل المؤمن يضحي من ذات نفسه هادئا راضيا، وها هوذا يبدأ حياته الجديدة بهذه الرسالة التي بعث بها الى رئيس الوزارة : (بعد ان قلت الليلة الكلمة التي حملتها عقيدتي وايماني لم يعد في وسعي الا ان أضع استقالتي من الوزارة بين يديك . قد أكون مخطئا في رأيي ضالا في عقيدتي ، ولكني لم أخطىء ولم أضل حين أعلنت الكلمة التي آمنت بها) .

* * *

بعد أيام قلائل نرى زوجة مور تودع أخاها قبل سفره الى افريقيا

التي تنذر أنباؤها الاولى بما يلقاه المغيرون من جموع حاشدة لم يقدروا ما لها من بأس وبطش ، ومن آجام وأدغال لم يدروا ما تقيم أمامهم من صعاب. فنرى الشاب الذي يبدو للناس مقدما على الحرب بكل ما يملأ قلبه من حرارة واخلاص ، والذي يخدع نفسه بما قد تتيحه الحرب من فرص تشبع ما يجيش به من أمل وتفاؤل ، وهو يضم زوجه الوالهة الى صدره ضمة تنزع من قلبه دفعة واحدة حبا كان يرجو ان يوزعه على الايام ، وتفرغ في قلبها عاطفة يحتفظ بها الرجل لمن يود ان تبقى الى جانبه حتى ينتهي بهما الطريق المألوف . وهكذا الجندي قد يتحدث الى الناس عن الحرب حديث التضحية والفداء ، وقد يهتف مع زملائه الذاهبين الى ساحتها بأناشيد الوطنية والبطولة ، ولكنه اذا خلا الى وحدته ذهبت نفسه فرقا من لهب النار الحامية ! ووجف قلبه هلعا من هول الدماء الطامية ! أما هذا الذي ندعيه في الحرب من بسالة وبطولة ، أما هذا الذي ننسبه الى الوطنية من تقتيل وعدوان ، فما هو الا أثر لما يثبت في الاذهان وهي رخوة ناشئة من تاريخ يمجد اولئك الذين بنوا شواهقهم من الجثث والدماء .

ولنعد الى « مور » حيث نلقاه وسط عاصفة عاتية تأخذه من كل جانب . فالصحف تنكر عليه ان يقف تجاه وطنه في هذا اليوم الحرج العصيب ، ويناشد الجمهور ان يحول بينه وبين ما يبذره في خطبه وأحاديثه من بذور الفتنة والتضليل ، وتثير سفه الغوغاء كي تجزيه على مروقه بما يستأهل من تسفيه وايذاء . والمقاطعة التي يمثلها في البرلمان تبعث اليه بوفد يعلمه بسخط ناخبيه على هذه الكلمة المزرية التي ألقاها على الناس دون تحرج أو استحياء ، ويستنكر منه أن يطوف بالمدن والقرى بأولئك الذين يثأرون للوطن ممن يستخفون بحرماته ، ويطلبون اليه أن يصحح موقفه — حتى ولو كان محقا فيه — فقد قامت الحرب ولم يعد من سبيل الى وقفها . ولكن الرجل ليس في حاجة الى من ينصحه ان يربأ بنفسه عن الريب

والظنون ، وليس مغتبطا بأن تلقى يده الى المهالك والمهاوي ، وكم يود لو استطاع أن يحجز نفسه عن هذه الطريق الشائكة وما تنتهي اليه من مجهول مرهوب • أما والامر الى عقيدته التي تسدد خطاه سواء الى الهدى أم الى ما يريده الناخبون • وهم يأخذون عليه أنه لم يفصح لهم حين اجتمع بهم منذ أشهر عن هذه الخطة التي فاجأهم بها على حين غرة ، وانه يأبى أن يعدل عن رأيه الخاطىء تجاه حرب لاهبة تقتضي كل فرد دمه في ساحتها فضلا عن صمته عن التنديد بها !•• ولكن العقائد كالأجنة ، لا تخرج مستوفية النمو مستكملة العناصر مرة واحدة ، وكم من ليال ساهرة قضاها في مجاهدة هذه الافكار الغامضة التي انتابته أول الأمر ، وكم من آلام بئيسة كانت تحز في قلبه وهو يرى هذه الآراء المشتتة الملتاثة قد تجمعت واتضحت وتجسمت حقيقة مرة ! ـ وهم يذكرونه بما يلقاه ابناء وطنه في مسارب الادغال والاحراش ، وفي منعطفات الجبال والوديان ، من مناسر تبطش بهم بطش الضواري الكاسرة ، ومن أجواء تعصف بهم عصف الرياح بالهشيم ، فيقول لهم تصوروا جيشا من اولئك الزنوج أغار على بلادنا نهبا وفتكا ، فلقناه بما اعتدنا له من حديد ونار ، حتى حصدنا جمعهم فردا فردا ، ثم ألقينا بجثثهم تنهشها الكلاب وتنقرها الغربان • أكنتم تعدون عملكم عدوانا أثيما أم دفاعا مجيدا ؟! أما ان ناخبيه يألمون ويأسفون حين يرون ممثلهم يشذ عما أجمعوا أمرهم عليه ، فهذا يقتضيه ان يعفهم من نيابته منهم في البرلمان •• وهكذا ترتد الجماعة الموفدة الى أهلها يائسة نادمة ، غاضبة ناقمة ، منذرة محذرة ، متوعدة مهددة •

* * *

أخذ (مور) يجوس خلال المدائن والقرى ، ليخطب الناس مندد بالحرب والاستعمار ، مبشرا بحريات الشعوب ، متحملا في أداء رسالته سفه الرعاع واذى الغوغاء ، ممن يساقون الى الباطل وهم يحسبونه الحق ،

ويهتفون للظالم وهم يظنون المظلوم • فنراه بعد ستة أسابيع قضاها بعيدا عن بيته وأهله • في بلاد تضيق به أينما حل ، وهو يخطب بعض الناس في احدى القرى النائية ، وقد اجتمع عليه نفر من سفلة الرجال والنساء، هازئين ساخرين ، صائحين صاخبين • ولكنه لا يحفل بسفاهتهم وبذاءتهم بل يصر على ان يسمعهم ما يغيظهم منه ويثيرهم عليه •• انه لا يلوم أحدا منهم فهم مساقون الى الغي سوق الانعام ، وانما يندد بالحكومة التي تدفع برجال الوطن وشبابه الى حرب لاهبة آثمة ، ويندد بالصحافة التي تضلل الجمهور دفاعا عن سياسة خاطئة ظالمة • ولكن الرعاع يخدعون أنفسهم عما تتجاوب به افئدتهم من أصوات الحق •

* * *

ولنذهب الى بيت مور حيث نرى ابنته تطيل الصلاة وتكثر الدعاء، كي تنشر جرائد المساء شيئا عن انتصار بلادها وهزيمة اعدائها • ثم تتحدث الى أمها عما يفعله أبوها خلال هذه الاسابيع التي هجر فيها البيت ضاربا في مناكب الارض كالافاقين المشردين • تسأل امها لماذا يخطب أبوها ناسا يأبون ان يسمعوه ؟ ولماذا يعرض نفسه لألسنة السفلة ؟ والأم في حيرة من اجابتها • لأن هؤلاء الذين يثورون به كلما خطب ، ويضجون به أينما ذهب، هم اولئك الذين تصلي الطفلة لنصرتهم •• أما خادمة البيت فقد جاءتها من ابنها الجندي في الحرب رسالة يصف لها ما يلقى الجيش الغازي من كيد العصابات المدافعة • فترى المرأة العجوز ان ليس مما يليق بكرامة ابنها أن تخدم في بيت رجل يدافع عن هؤلاء الزنوج الضواري • وتطلب الى سيدتها ان تعفيها من البقاء في هذا البيت الذي قضت فيه ردحا طويلا ، لا لأنها تخشى من يهاجم البيت من السوقة والصبيان ولا لأنها تعبأ بمن يعيرونها ويزمونها أينما ذهبت • بل لأن قلبها لا يطاوعها على أن تأكل خبز رجل يؤيد من قد يقتلون ابنها • بل هي تعجب كيف تنسى سيدتها ، وأبوها قائد في

الجيش واخوتها الثلاثة جنود في الحرب ، ان هذه الخطب التي يلقيها زوجها ذات اليمين وذات الشمال ، ليست الا سهاما مصوبة الى صدور هؤلاء الضحايا ! بل هي تعجب كيف ترضى سيدتها ان تبقى الى جانب رجل يتخلى عن مركزه في الوزارة ومقعده في البرلمان ويثير عليه النقمة والعداء ، ويتيح للحاقدين والمعادين ان يؤلبوا على وطنه قلب العالم المتحفز الناقم .. لماذا ؟ ليدافع عن زنوج يهيمون في الغابات كالسوائم الضالة ، ويأوون الى الكهوف كالسباع الكاسرة ! وهكذا تستفز عاطفتها وتستثير شعورها .

ولكن ماذا تفعل الزوجة حين يفرض عليها ان تفاضل بين أهلها وزوجها؟ انها ترى أباها واخوتها وسط نار موقدة ، وترى زوجها يؤجج النار ويثير لهيبها !! فهل تقف تجاه هذا الزوج مضحية بكل ما ترجوه المرأة في الحياة من زوج محب وعيش رخي ؟ أم تقف الى جانبه لتؤدي واجب المرأة قبل الرجل حين لا يبقى له من أضواء الحياة الا ما ترسله عيناها من بريق ؟

ثم ماذا ؟.. في هذه الساعة التي تنهبها العواطف العنيفة ، وتتوزعها الافكار الجامحة ، تأتي زوجة أخيها لتقص عليها حلما مروعا ، رأت فيه سهلا فسيحا مستويا يمتد في الافق كضباب يغمر الفضاء ، وقد انتثرت عليه أشباح قاتمة لا ترى ، ثم ظهرت من بينها جثة مقطوعة الرأس ورجلا يضمد جرحا بساقه .. ثم رأت زوجها مغبر الوجه مهضوم الجسم ، وبصدره جرح تتدفق منه الدماء . ثم سمعت صوتا يقول : (يا الهي اني أموت) ثم خفت الصوت قليلا وان الرجل ثانية : (سأظل طول الليلة أقاسي نزع الروح وفي الصباح أسلمها) . وضحك تابع زوجها وقال : (النسور لا تمس الاحياء) فقال له سيده (دع الرجل) ثم نهض خائرا متخاذلا وتقدم الى الرجل المحتضر ، وقبل أن يبلغه انتزع منه التابع غادرته وأطلقها عليه . فصاح زوجها : (يا وحش) ثم سقط ثانية هامدا لا يتحرك . وبدأ الظلام يغمر السهل ، ولم تر الا امرأة تجري هنا وهناك بين أجداث القتلى .

* * *

أما مور فيؤكد لخادمه ان ليست هناك راحة تعدل هذه التي تغمر الانسان حين يرى يده لم تمتد بالاذى الى أحد من الناس ، وان امتدت اليه بالاذى جميع الايدي •

وها هو يتحدث الى صديق جاء يطلب اليه ان يأذن له ان يتفلسف قليلا • يقول صاحبه : ان شعبا يبذل دم ابنائه راضيا سخيا ، ويعب دم أعدائه شرها نهما ، ثم يعصب عينيه كي لا يرى الصنم الذي يضحي على مذبحه • لن يستمع الى العقل مهما دوى صوته في الفضاء لأنه يلبي نداء الغريزة التي تضطرم في عروقه • فليس لهما اذا ان يؤملا في السوقة ان تسمو بمثلها الى حيث تؤثر العدل على الوطن • وليس لهما اذا ان يلوما الرعاع الذين هاجموا مور وآذوه • ثم ينصحه صديقه ان يغادر المدينة على عجل لأن الجمهور يتردد دائما بين هذا وذاك حين يكون النزاع سجالا • فاذا تحقق النصر لأحدهما تقوى على المهزوم بكل ما فيه من اخلاص موهوم •

وقد جاءت الانباء الاخيرة تعلن النصر المبين في المعركة الحاسمة • فستتجمع هذه الاوحال التي تملأ أرجاء المدينة في تيار جارف يطغى عليه ويغرقه •• ولكن ماذا يخشى مور من الغرق ؟ بل ماذا يرجو مور من النجاة؟ انه يسعى منذ اشهر في الارض ليؤذن بعقيدته والعالم كله أصم ، وليبسط فكرته والدنيا كلها عمياء !!

ثم تأتي الخادمة تستأذن سيدتها في الانصراف من البيت ، حتى الخادم العجوز قد أنساها الغيظ ما لها وعليها من حق فتقف بينه وبين زوجته موقف المحرض الساعي ، وتجبهه بهذا القول القاسي : (أين قلبك ؟ أيخفق عطفا على هذه الحيوانات العابثة بين الادغال ؟ ألا يخطر له هذا الوطن وهؤلاء الابطال ولو عفوا ؟•• ثم هذه الزوجة التي ولدت ونار الحرب مشبوبة ، واستشهد جدها في ساحتها ، وخدم ابوها الجيش خمسين سنة

ونزل اخوتها الثلاثة الى الميدان حين دعاهم ـ أليست لها عندك كرامة تدعى؟ أيرضيك ان يرجم الناس نوافذ غرفتها ؟ أيعجبك أن يهزأ بها الصبية في الطرقات ؟ كيف تفكر في اعداء الوطن أكثر مما تفكر في زوجتك ؟ انظر اليها • ألا ترى وجهها الشاحب وبصرها الساهم ! ألا تشعر بقلبها الحائر وضميرها المفنى ؟) ثم تذهب غير آبهة لما يتوقعها من جوع وعري في هذا العمر الفاني ـ ويدخل حموه ليعلن الى ابنته نصر بلادها وقتل أخيها ••• ويقول القائد لمور : (قتل ابني بأيدي اولئك الذين تدافع عنهم • وقد يقتل ابناي الآخران ولست بنادم ولا خائف ، فاني أوثر ان يموتوا دفاعا عن وطنهم على ان يتخاذلوا عن أداء ما يفرضه عليهم الشرف) فيعترضه مور : (اني اتمنى ان أحل محل أحدهما في الميدان) فيجيبه الرجل : (نعم واني ادرك ما أنت فيه من ألم وشقاء ، ولست أعرف أبأس ممن يقف تجاه وطنه ولأسعد ممن يستشهد في سبيله • والوطن ـ كالله ـ لا يحق لنا ان ننسب اليه الخطأ أو نحكم عليه بالظلم) •

ثم يحدثه عن موقفه من ابنته : (لست أدري بعد ان قتل ابني كيف يكون الامر بينك وبين ابنتي • ولكنني أقول لك انك حمّلتها طوال هذين الشهرين ما ليس في سعة امرأة ان تحمله • وقفت بجماع قلبك العنيد تجاه ما تعتز به من كرامة وما تجيش به من شعور) • فيرجوه مور ألا ينسى ما حمله هو كذلك طوال هذه الايام الشاقة الاليمة • كيف يمر به أصدقاؤه كما يمرون على حجر لا يسمع ولا يرى ، كيف يلقاه الناس معرضين بوجوههم تحقيرا وازدراء ، كيف يأوي الى فراشه كل ليلة وأصوات السفهاء ترن في أذنيه • على ان الرجل لم يأت ليؤنبه بل لينقذه قبل ان ينفذ الامر • فهو ينصحه بأن يكتفي بما ألقى من خطب وما جاب من بلاد ، وان يهجر وطنه قليلا حتى تنتهي الحرب وتهدأ ثائرة الناس • ولكن مور الذي يرى ابناء وطنه يلقون الموت في القفار والفيافي دفاعا عن مبدئهم يأبى ان يشتري

الراحة والعافية أو يتقي الاذى والردى بالتخلي عن مبدأ أنبل وأسمى . ثم كيف يطفىء بيديه هذه الجذوة المقدسة التي أوقد الضمير نارها في القلوب، ونشر الحق نورها في الارجاء ؟

أما زوجته فترى ان الرجل الذي يؤثر رضى اصحابه واعوانه على حب الزوج وصلة الاهل ، لا يستأهل ان تبقى الى جانبه هذه التي تقضي الليل الساهر مرتمية على الارض ، تفكر في اخوتها الذين يقعون في الميدان اشلاء مبعثرة . بينما هو يهجر البيت دفاعا عن قاتليهم السفاحين . ولما توسلت اليه ان يهبها شيئا من قلبه قال : ان واجب الرأي أولى من حب المرأة . واذا فلا سبيل الى ان يمتد الامر بينهما الى أكثر مما ضحت . ولا لوم عليها ان تركته هي وابنتها حيث أراد الى بيت أبيها .. وما أقسى أن ترى الزوجة المحبة الوفية حيث يتقوض البيت الذي شادته من عصارة قلبها، وما آلم ان ترى الطفلة البريئة الباكية وهي تتوسل الى ابيها ان تبقى معه أو يأتي معها !

ويتدفق الناس أمام البيت في جموع زاحفة ، ويتعالى الهتاف الداوي بكلمات الخيانة والجبن والنذالة ، ثم ترجم النوافذ بالصخور الحاطمة حين يطل مور ، وهو لا يعي ، ليرى العربة التي تقل زوجته وابنته . ويندفع الثائرون الى ساحة البيت ، قارعين طبولهم حاملين مشاعلهم ، ومن بينهم شاب فارع القامة عريض المنكبين ، يتقدم الصفوف ويقتحم الباب الموصد . ويتجمع الطلبة والفتيات على مور ويأخذون بتلابيبه ويتدافعونه بينهم . ثم يضعونه على منضدة ويأمرونه ان يخطب فيقول : (تستطيعون أيها الرعاع ان تمثلوا بجسمي كما تشاؤون) فيعترضه احدهم : (نعم وسنفعل) ويقول آخر : (أقسم ألا تقول كلمة أخرى ضد وطنك) فيتابع خطبته : (اني لا اخافكم ، ولكنكم اقتحمتم بيتي عنوة ، وطلبتم الي ان اخطب فيكم ، اذا فاسمعوا كلمة الحق هذه المرة ، انكم انتم الذين تظلمون الضعاف حقوقهم

وتسلبون النساء كرامتهم ، وتأبون على الرجال ان يعلنوا عقائدهم جهارا ، وليست لكم عقول تهديكم ولا قلوب ترشدكم وانما انتم الضعة والجبن • اما الوطنية فنوعان : هذه التي يدافع عنها الجنود ، وهذه التي أدافع عنها • ولستم أنتم من هذه ولا من تلك) وتقاطعه الاصوات ، ولكنه يصر على ان يتكلم : (ان وطني غير وطنكم وطني هو الذي لا يهضم حق الضعيف • وفي وسعكم ان تهشموا عظمي هشما ، وتنهشوا لحمي نهشا • ولكنكم لا تستطيعون ان تمسوا عقيدتي ولو كنتم الوفا مؤلفة على واحد ضعيف) •

وتتقدم منه فتاة شعثاء الشعر وتخاطبه : (أأنت في صف أولئك الذين قتلوا فتاي ؟!) ثم تستل سكينا وتغمدها في صدره فيخر صريعا •

* * *

في يوم من أيام الربيع الناضرة ووسط خميلة من الاشجار الوارفة ، بدأ الفجر يرسل ضوءه في انحاء الفضاء الفسيح ، وأخذت الطيور تشدو بأغانيها الشجية •• ووقف تمثال مور وعلى ثغره بسمة وديعة رفيقة حازمة ، وفي عينيه نظرة بعيدة هادئة واثقة وعلى حافته هذه الكلمة :

أقيم لذكرى ستيفن مور رمز الاخلاص لمبدئه •

شيللر المؤمن

يعتبر فريدريك فون شيللر (١٧٤٩ ـ ١٨٠٥) من اشد الكتاب الالمان ميلا الى النزعة الروحية . كما ان عصره من اخصب عصور النهضة الالمانية . فقد عاصر غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) وبيتهوفن وفيخته وهيغل وغيرهم .

وفي روايات شيللر الدرامية تعبير حقيقي عن شغفه الشديد بالحرية . وقد تجلى هذا في روايتيه المعروفتين (اللصوص) * و (الحب والخديعة) اللتين كتبهما أيام شبابه .

كتب شيللر الكثير من القصص والروايات والمسرحيات ، مثل : ابن العم الاخ ، دون كارلوس . كما كتب شيللر « موضوعة السيمفونية التاسعة » لبيتهوفن ، ومثل في قصته فتاة أورليان التفاني في سبيل الوطن .

---

* كتبت اللصوص كقصة استخدم في وضعها الاسلوب المسرحي ، وقمت بترجمتها للعربية عام ١٩٦٢ ونشرتها دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

فتاة أورليان

« ••• أجل ، لقد اكتمل نضجها • ان جسمهـا كالزهرة الغضة ، قد تفتح عن جمال قدسي ولكن عبثا تنتظر جني الثمار • أشد ما يؤلمني نفورها من أختيها وامتناعها عن الزواج مثلهما • تترك فراشها قبل الفجر ، وتنسل كالعصفور الوحيد في غسق الليل الى شعاف الجبال ، متخذة مـن الرياح البرية صاحبا وحيدا •

لماذا لا تتزوج كأختيها من هذا الشاب الجميل ريموند ، وتأخذ نصيبها من الحياة وتعيش كما نعيش ؟

طالما رأيتها جالسة تحلم تحت الشجرة المسحورة التي يرتاع منها كل من يراها ، لأن روحا خبيثة تسكن هناك ، مسكن الوثنيين الاقدمين ، وطالما سمعت فلاحينا يقصون عنها قصصا غريبة كلها هول ورعب ، كأصوات خفية ليست كأصواتنا تصافح آذاننا وهي تنبعث من الاعماق • وقد حدث مرة ان ضللت الطريق الى تلك البقعة فلمحت شبحا هائلا يخرج من عباءته الطويلة يدا نحيلة ، فهرولت فزعا واستعذت بالله من شر تلك الارواح •

لقد رأيت جان في ثلاث ليال متعاقبة جالسة على العرش في (ريمس)، وعلى جبينها اكليل بسبع نجـوم ، وبيدها صولجان بثلاث زنابق ، ورأيت نفسي وشقيقتيها والنبلاء والاساقفة والملك نفسه ينحنون أمامهـا • كيف استطيع ان اصدق هذا الحلم الرائع ؟ آه انها لمقدمة شر عظيم : ان هذا الحلم

يكشف عن تلك الرغبة الباطلة والشوق الخاطىء الذي يتملك قلبها • انها تعاف منبتها الوضيع لان الله حباها جمالا غنيا واختصها من بين فتيات هذا الوادي بقلب ذكي وعقل نير وجسم خصيب •

بهذه الكبرياء التي سقط بها الملائكة من قبل ستغوي هذه الشيطانة الملعونة الناس • سأصمت الآن ، أيمكن أن أتهم ابنتي ؟ لا أستطيع الا أن أحذرها وأصلي من أجلها • ألا سحقا لتلك الشجرة الملعونة ؛ الافضل ألا نترك أنفسنا في البرية ، فان أمير الظلام يستطيع ان يغوي الانبياء ان قلبها قلب رجل لقد أخضعت مرة الذئب ، ذلك الحيوان الكاسر الذي انقض على قطيع الغنم وملأ الوادي خوفا ورعبا ، ولم يستطع أحد أن يدنو منه الا جان قلب الاسد فقد انقضت عليه وخلصت ذلك الحمل من بين أنيابه » •

بهذا كان يتكلم (تيبو) والد (جان) عندما دخلت عليه ومعها اختاها والأزواج الثلاثة الذين يأخذون في التحدث عن حالة البلاد وما صارت اليه ، فيخبرهم تيبو ان العدو قد تغلغل في قلب البلاد كأنه جيوش من النحل تحوم حول خلاياها في يوم صاف ، او كسحب من الجراد قد ملأت الجو • فمن برغنديين الى هنغاريين وهولنديين وانجليز ـ الكل قد انضوى تحت لواء دوق نرمندية وهم يحاصرون الآن أورليان • لقد تهدمت الكنائس وأخذ حصن (نوتردام) المنيع يحز من قنته ، ورصاص البنادق سيدوي في الشوارع وتقف المدينة مرتجفة تترقب سقوطها من ساعة الى أخرى • وقد استولى الذعر على جميع السكان وتذمر الجند من قلة الرواتب ، وذابت صيحات الملك في فضاء المملكة ، واضطرب الناس فيما بينهم كما تضطرب الشياه اذا هاجمها ضواري الذئاب •

فلا تكاد تسمع جان هذا الكلام حتى تنقض وتقول كأنه قد أوحى اليها :

« لا تتحدث عن الضعف والاستسلام ، فسيأتي المنقذ وسيرد العدو عن أبواب أورليان ــ لقد جاءت الساعة وها هو ذا يقترب الآن ومعه تلك العذراء •• لا تيأسوا ولا تهربوا فانه قبل ان تنضج تلك الثمار او يكتمل القمر لا يبقى جواد انجليزي يرد مياه لوار الجارية • ستكون معجزة ، ستظهر حمامة بيضاء كالثلج وفي قوة النسر ، ستمزق طيور الفريسة التي تحوم فوق أرض الوطن ستنقض على البرغنديين الخائنين وستطرد لصوص الجزيرة ــ ان اله الحرب سيختار ذلك المخلوق الضعيف الرقيق ويضع فيه قوته لانه قوي جبار » •

فيعجب القوم من أمر هذه الفتاة ولا يفهمون ماذا تعني بهذا الكلام ، فيتركونها تسبح في أحلامها وينصرفون الى شؤون الرعي والزراعة ، فتبقى جان وحيدة تخاطب نفسها :

وداعا أيتها الجبال المحبوبة والاودية النائمة المطمئنة • ان جان لن تمكث فيك بعد اليوم لأنها ستفارقك الآن • أيتها الحقول التي طالما رويتك ! أيتها الاشجار التي غرستك ! أيتها الازهار المتفتحة والثمار الحلوة اللذيذة وداعا !! أيتها الينابيع البلورية ذات الاصداء المعذبة ! روح الوادي المحبوب التي طالما رددت أناشيدي ان جان ستغادرك اليوم الى حيث لا معاد • ايه يا مسارح صباي ومواطن لهوي وسروري سأخلفك الآن ورائي، ولن أراك ثانية ! أيتها الحملان والخراف الصغيرة يا من تركت بدون مأوى، لن يرعاك بعد اليوم راع ، ستهيمين طريدة لاني وطنت العزم على الذهاب الى ميدان الحرب ذي اللون القرمذي حيث أجد هناك قطيعا ينتظرني •

ان هذه هي رسالة الروح الى قلبي وما من طمع ارضي يشيع في صدري !!

ان ذلك الذي ظهر في العليقة الى موسى في البرية وأمره ان يذهب

ويقف أمام فرعون لينقذ بني اسرائيل ، قد جاءني وأمرني ان اذهب لأكون رسـولا له على الارض ، وان اكسو صدري بالدروع وأدجـج جسمـي بالسلاح • فلا الحب الارضي يستطيع ان يعرف طريقه الى قلبي ولا النزوات الدنيئة تتسلط على نفسي • ولن أحمل رضيعا ، بل المجد الحربي نصيبي ! وتحرير الوطـن رسالتي ! وتتويج الملك فـي كنيسة (ريمس) شهرتـي وفخاري • لقد وعدتني تلك الروح السماوية بعلامة • فقد ارسلت الي هذه الخوذة التي تبعث في قوة مقدسة ، فاندفع كالريح العاتية الـى ميـادين الحرب • الابواق تدوي والمهاجمون يصيحون وزئير الحرب في أذني ! فهيا الآن •

ثم تدق الطبول وينفخ في الابواق اعلانا للحرب • ويلتحم الجيشان وتدور الدائـرة علـى جيش الانجليز فتموت زهـرة فرسانه وينسحـب البرغنديون ، وتتراجع جان تاركة جيشها في نشوة الانتصار الـى مكـان منعزل وتصلي للعذراء التي قوت عزمها فـي كـل هذه المحن والخطوب ، ويذهب الفرسان وبأيديهم المشـاعل معلنين فوزهم وانتصارهم • فيعجب الملك بهذه المفاجأة ولا يصدق حتى يأتيه قائده (دينوا) وهو نبيل من نبلاء فرنسا وفارس من فرسان الحرب • فيقص عليه كيف كان انكسار الجيش الفرنسي اولا ثم انتصاره أخيرا على يد تلك العذراء التي تقدمت الى الجند في ملابسها الحربية كأنها آلهة الحرب وصاحت فيهم : « ماذا يخيفكم أيها الفرنسيون الشجعان ؟ هيا الى العدو ولو كان يفوق رمال المحيط عدا ، فان الله والعذراء معكم » ثم اختطفت العلم من حامله وتقدمت الصفوف فـي شجاعة نادرة ، والكل ذاهل صامت لا يدري ماذا يفعل من هول مـا رأى • فوثب الجيش متتبعا العلم والعذراء • وفي حماسة ملتهبة انقض على العدو الحائر المذعور ، فاندفع شطر منه الى الماء وأسلم الشطر الآخر بغير مقاومة• ثم كانت مجزرة أطاحت فيها رؤوس الفين من جيش العدو ، بينا نحن لـم

نخسر جنديا واحدا • فيعجب الملك لهذا الانتصار العريب ويسأل عن تلك الفتاة فيجيبه قائده : « انها فتاة مخيفة مرعبة ولكنها محبوبة جميلة • تقول ان الله قد أرسلها لترفع الحصار عن أورليان ، قبل ان يكتمل القمر • وها هي قادمة » ويريد الملك ان يمتحنها فيجلس النبيل دينوا مكانه ويقف هو بين الحاشية ويقف سائر النبلاء بجانبه • ثم تدنو من الملك وتنحني أمامه قليلا ثم تهب واقفة • فينظر القوم اليها في دهشة ويسألها الملك : « كيف عرفتني ولم تر وجهي قبل الآن ؟ » فتجيبه جان بأنها قد رأته في « محضر الاله » ثم تقول : « اني فتاة فقيرة ولدت في احدى قرى فرنسا «دوم ريمي» وقد سمعت كثيرا عن سكان تلك الجزر الذين يأتون لاستعبادنا ، وعلمت كيف أخذوا باريس ونهبوا المملكة فتضرعت « لأم المخلص » ان تنقذنا من عار ذلك الاستعباد وان تحفظ لنا مليكنا الشرعي • وكان بجوار قريتنا صورة للعذراء معلقة في احدى أشجار البلوط المقدسة ، فكنت ألجأ الى هذه الشجرة أرعى غنمي ، فرأيت في حلم من أحلامي وأنا في ظلها ان العذراء المقدسة قد ظهرت لي في ثياب الرعاة حاملة في احدى يديها سيفا وفي الاخرى علما، ثم خاطبتني قائلة : «ألا هبي يا جان! ولتتركي قطيعك هذا فان الله قد كلفك بعمل آخر ، ولتأخذي هذا العلم ولتحملي هذا السيف لتأتي به على أعداء شعبي ولتقودي مليكك الى «ريمس» حيث تتوجينه» • فقلت : « كيف استطيع ان اقوم بهذه الاعمال وانا فتاة رقيقة لم أزاول فن الحرب قط ؟ » • فأجابت « ان العذراء الطيبة التقية تستطيع ان تأتي في الارض بروائع الاعمال اذا لم يخضع قلبها للحب الارضي » • ثم لمست جفني بيدها • فلما رفعت وجهي رأيت السماء قد امتلأت بالملائكة الصغار يحملون الورود والزنابق في أيديهم وينشدون أعذب الاناشيد ويهزجون أحلى الاهازيج •

وهكذا ظهرت لي تلك العذراء المقدسة في ثلاث ليال متوالية • وهي

تصيح : « هبي يا جان • ان الهك قد عينك لأمر آخر » وفي الليلة الثالثة ظهرت غاضبة وألقت الي بهذه الكلمات : عليك ان تطيعي ، ان عمل المرأة في هذا العالم شاق عظيم يجب ان تطهري بالتعاليم • وان من يخدم هنا يمجد في السماء • وما كادت تلفظ هذه الكلمات حتى ألقت عنها ثوب الرعاة فظهرت كأنها أضواء لامعة ، ثم اخذت السحب الذهبية تحملها شيئا فشيئا الى عالم النعيم • فدهش الكل لهذا الحديث ولكنهم لا يرتابون فيما سمعوا فان العمل قد سبق القول • ثم يأمر الملك ان تعين جان رئيسة للجيش • ويجيب دينوا : « سنطيعك اطاعة عمياء • ان عين تلك الفتاة المقدسة الشبيهة بعيون الانبياء ستقودنا الى حيث نريد • وان هذا السيف الشجاع سيحمينا من أشد الاخطار هولا » •

لم يكن دينوا هو الذي ينطق بهذه الكلمات الحماسية التي تشيد بأعمال تلك الفتاة الطاهرة ، بل كان قلبه هو الذي يوقع أنشودة المجد والفرح على أوتاره ، هذا القلب الكبير الذي لم يخضع من قبل لسلطان الحب ، أصبح يتلظى اليوم شوقا لأن يستقر على ذلك القلب الوديع الذي يستطيع أن يحمله ويفهم سره ••

لقد أدت تلك الفتاة رسالتها وعليها الآن أن تقرر مصيرها • فهي التي حررت فرنسا ، وهي تستطيع ان تمنح قلبها لمن تشاء • فيكاشف الملك برغبته فيدعو الملك جان اليه ويدور بينهم هذا الحديث :

دينوا : ماذا يكون مصيرك أيتها الفتاة المقدسة ، فانك لا ريب ستكونين أسعد المخلوقات البشرية لأنك محبوبة من السماء نقية طاهرة ؟

جان : ان السعادة هناك من الهنا الذي في السماء •

الملك : ان سعادتك ستكون منذ الان موضع تفكير الملك واهتمامه • اني امجد اسمك في كل انحاء فرنسا وستباركك الاجيال القادمة • وهأنذا

أنجز وعدي هكذا (تركع جان ثم يلمسها الملك بسيفه) ففي الآن ، انك شريفة • اني امجد مولدك وآباءك في قبورهم ، ان اعظم نبلاء فرنسا ليشعر بالفخر في خطب يدك • ان زواجك سيكون موضع شغلي وتفكيري •

دينوا : ـ متقدما ـ لقد اختارها قلبي وهي وضيعة مجهولة • ان الشرف الجديد لم يزدها قدرا ولم يزدني حبا لها • هنا أمام مليكي والاسقف الطاهر أمد اليك يدي أيتها العذراء الرقيقة ، واتخذك زوجة لي اذا كنت ترينني جديرا بك •

الملك : أيتها الفتاة الطليقة الحرة كم من معجزات تضيفينها الى معجزات ! لا شيء يمتنع عليك لقد أخضعت ذلك القلب الكبير الذي لا يزال متجبرا حتى الآن ، انكما بطلا الميدان في الفضائل والشهرة • قد سحقتما عدوي ووحدتما مملكتي وأرى انكما جديران ببعض • تكلمي أيتها العذراء الرقيقة • ان قلبك الآن هو الذي يقرر •

جان : ان اختيار مثل هذا النبيل لشرف لي ، ولكني لم أترك رعي الخراف وحياة الرعاة لأنال مجدا دنيويا ، أو لأرتدي لباسا حربيا ، ولا لأتوج رأسي بأكاليل الملوك • ان عملي أبعد من هذا ـ هو عمل فتاة طاهرة • اني جندية في جيش الملك ولن أكون زوجة لمخلوق فان •

الاسقف : لقد ولدت المرأة لتشارك الرجل الحب • فعندما تلبي نداء الطبيعة تنفذ بذلك ارادة السماء • فاذا ما أديت رسالتك اليوم في الحرب ستلقين بأسلحتك غدا ، وتبحثين عن نوع أرق من الناس يشاركك عيشك بدل هذه الحياة العسكرية الخشنة •

جان : أيها السيد المعظم ، اني لا استطيع ان احدد عمل الروح • ولكن عندما يحين الوقت فان صوتها لا يبقى خافتا وسألبيه وهو الآن يأمرني ان أتمم واجبي ـ ان سيدي لم يتوج بعد •

الملك : اننا ذاهبون الآن الى ريمس •

جان : دعنا لا نتوان ، ان العدو يدبر خطط الايقاع بنا • سأقودك وسط جحافله •

دينوا : وعندما تنتهي رسالتك المقدسة وندخل ريمس منتصرين ، ألا تسمحين أيتها الفتاة الطاهرة أن ••• ؟

جان : ان اراد الله ذلك ، فان عملي سينتهي عند هذا ، ولا يبقى لي عمل في القصور •

الملك : انه صوت الروح الذي يتكلم الان • ان الحب الملهم الذي في قلبك صامت الان ، ولكنه سوف لا يبقى طويلا في صمته • فاذا ما وضعنا سلاحنا وهدأت نفوسنا سيعود الفرح الى صدورنا وتستيقظ فينا تلك المشاعر اللطيفة وستستيقظ في قلبك أيضا وستبكين بدموع الشوق اللطيف • دموع لم تعرفها عيناك من قبل • ان هذا القلب الذي تحتله السماء الآن سيفتح غدا للصديق الارضي •

جان : أتتحدث أيها الملك عن الرؤيا السماوية ومدى اثرها • أو تنحط تلك العذراء التي ارسلها اليك الاله الى تراب عادي • يا أعمى القلب ، يا قليل الايمان • ان مجد الله يشع حولك ، ولقد كشف لعينيك عن عجائب ولكنك لا ترى الا امرأة عادية • أتجرؤ المرأة ان تلبس هذه الملابس وان تحمل هذا السلاح وتكافح كفاح الابطال ؟ ألا سحقا لي وتعسا اذا خفق قلبي بحب انسان فان • اذن لكان اجدر بي ان لم أكن ولدت • لا حديث الان عن هذا ، هيا الى العمل • ان عين الانسان التي ترعاني بالحب هي في نظري رعب ودنس •

الملك : من العبث ان نستدرجها بعد الآن •

جان : دع الابواق تدوي . ان هذا الركود يضايقني . اشعر بدافع داخلي يدفعني من هذا الجمود ويناديني لأن انجز عملي وألقى مصيري .

ولكن جان وقعت فيما كانت تخشاه ، اذ خفق قلبها بحب هذا الانسان الفاني ، وان مصابها بهذا الحب الارضي كان أعظم . اذ لم تحب ذلك القائد الفرنسي العظيم دينوا الذي قدم اليها قلبه الكبير رهينة لحبه السامي الصادق . ولا غيره من النبلاء والضباط الفرنسيين ولا (ريموند) الراعي خطيبها الاول . بل أحبت انسانا اجنبيا عدوا لها ، هو ضابط انجليزي « ليونيل » أسرته في الحرب الاخيرة وأبقت على حياته من أجل حبها له . ولكن الحب لم تكد تحس بحرارته حتى ابتعدت عن مصدره ، اذ عاد الضابط الى بلاده وعادت هي الى وطنها تحمل قلبا تنتابه شتى النوازع ومختلف الاشواق .

عادت الى باريس انسانا بدون قلب وجسما بلا روح كأنها قبر متحرك لحبها الموؤد ...

وليس أفصح للتعبير عن تلك الثورة النفسية العنيفة التي انزلتها من سماء الطهر الى أرض الفساد ، وأثارت كوامن أشجانها وقلبت كيان وجودها ، وصيرت الحياة في عينيها ظلمة وعماء تضل فيه روحها على غير هدى ، بل جعلت حياتها هي عبثا وهدما ، عن حديثها وهي تناجي نفسها ..

« لقد خفت صوت السلاح ورقدت عواطف الحرب واعقب تلك المعارك الدموية أناشيد الفرح يرن صداها في كل انحاء المدينة ، ونواقيس الكنائس تدق معلنة سرورها في هذا العيد ، واقواس النصر تقام في كل الميادين ان « ريمس » على اتساعها تضيق بالجماهير التي تتدفق اليها من جميع الانحاء ، والكل فكر واحد وشعور واحد ، هو شعور الفرح بهذه الوحدة المقدسة .

ان فرنسا اليوم تستعيد مجدها القديم وتسجد اجلالا لمليكها العظيم •
الا أنا التي أوجدت هذه الافراح لا أشارككم فيها ، ان قلبي قد تغير وأخذ اليأس يستولي علي • انه لا يزال يحن الى حرب الانجليز ، ولكن ارادتي تقف في سبيلي • لقد انسللت من الجمع مفعمة حزنا ، لأخفي ذلك الجرم الذي يجثم فوق صدري الآن • ماذا ؟ هل أسمح لانسان بشري أن يطوف بقلبي المقدس ؟ هنا حيث الاضواء الالهية قد تلألأت آآذن للحب الارضي أن يسكن فيها ؟ وهل احترق أنا منقذة الوطن ورسولة الاله العظيم ! أحترق الآن من أجل عدو بلادي • اني لا أتجاسر على ان ألقي ضوء السماء المقدس ولا أشعر بشناعة عاري » •

(تسمع أنغام موسيقية ناعمة ثم تتلاشى شيئا فشيئا) •

ألا سحقا لي • ان هذه الانغام المذابة تشوش محني • إن كل نغمة تحمل في رجعها ذكراه وصورته وهو واقف امامي • آه ! لو أن الحراب لمعت اليوم ودوت الحرب وقعقع السلاح لعادت الي قوتي الاولى • ان هذه الانغام الحلوة ، وهذه الاصداء المذابة مسكرة مشجية • انها تذيب في صوت رقيق كل شعور وان كل فكر يستدر الدموع من حزني المرير •

ثم تستجمع بعض شجاعتها فتقول :

« أكان لي ان اقتله ؟ أكنت مستطيعة ذلك عندما حدقت في وجهه • أقتله ؟ لا • بل كان لي ان اصوب سهامي الى صدري • ولكن هل أعاقب من اجل انسانيتي • وهل الرحمة خطيئة ؟ الرحمة ! وهلا كنت أسمع صوت الرحمة والانسانية عندما كانت الرجال تتساقط ضحايا سهامي ؟

أيها القلب الماكر انك تكذب أمام السماء • ليس صوت الرحمة هو الذي يناديك الان • لماذا قدر لي ان انظر الى عينيه وان أمعن النظر في

ملامح وجهه الجميل ؟ يا لي من تعسة بائسة • كان لي أن أجهز عليه ولكن قلبي لم يطاوعني ونصبت لي جهنم شراكها » •

ثم تستسلم لحزن عميق :

« كم كنت اتمنى ان تلك الاصوات لم تصل الى أذني من خلال تلك الشجرة المقدسة • يا ملكة السماء المقدسة ليتك لم تظهري لـي • خذي ، خذي تاجك فاني لا يمكنني ان ادعيه لنفسي الان ، خذيه فهو ليس لي • لقد رأيت السماء تفتح لي ابوابها • ولكن آمالي كانت لا تزال عالقةبالارض ولم تستطع ان تسمو اليها • لماذا ألقيت الي أيتها العذراء بهذا النداء الثقيل؟ أأنسل وأغلق قلبي على كل العواطف الرقيقة التي خلقت لأشعر بها بطبيعتي• أيها الاله ان الخالدين يحفظون تعاليمك ، انهم لا يشعرون ولا يبكون • فلا تختر مساعدة امرأة رقيقة • لا ولا روح عذراء راعية • هل كنت مشتغلة بالشؤون الحربية والمعارك والكفاح ؟ كنت أرعى غنمي في طهارة وسذاجة فوق سفوح الجبال الصامتة ، فأرسلتني الى حياة القصور والحروب لأفقد زهرة روحي اللطيفة • وأسفاه ! اني لا أبحث عن مصيري •• » ، ثم تدخل عليها الملكة وتعانقها في شوق عظيم وتسجد امامها ، فتدهش جـان لهـذا وتحاول ان تنهرها وهي تقول : « هل نسيت نفسك ونسيتني ؟ » •

الملكة : لا تمسكيني • انه السرور العظيم يلقي بـي تحت قدميك • يجب أن أسجد شكرا للاله الذي أعبده مستترا فيك • انك الملاك الـذي سيقود سيدي الى « ريمس » ويتوجه هناك • ان ما أحلم به قد تحقق • ان حفلة التتويج ستعد سريعا • كـل هذا يبعث فيّ فرحـا عظيما لا استطيع حبسه • لكني أراك رزينة متجهمة ! أتخلقين فرحـا ولا تشتركين فيه ، ان قلبك بارد لا يساهم فـي هـذا الفرح الشامل ! لقـد رأيت السماء رائعة الجمال ، مبتهجة لافراحنا • ان اللذات البشرية لا تحرك قلبك النقي، أوه ،

ألا تحملين قلب امرأة ؟ انزعي عنك هذه الدروع فقد انتهت الحرب لتختاري لك صديقا من نوع آخر ، أراك مقطبة الجبين ، ان قلبي يرتجف خوفا منك .

جان : ماذا تريدين ان اعمل ؟

الملكة : ان تنزعي هذا اللباس وان تلقي بهذا السلاح . ان اله الحب يخاف ان يقترب من صدر مغطى بالصلب أوه ! كوني امرأة لتشعري بهذه القوة !

جان : أأجرد نفسي الان من السلاح . سأكشف عن صدري وسط المعارك لضربات العدو المميتة ولكن ليس الآن . ألا من جدار نحاسي سبعة أمثال هذا الجدار يحول بيني وبين مرحي وبيني وبين نفسي ؟

الملكة : ان الكونت دينوا يحبك . ان قلبه النبيل يتأجج غراما وشوقا، وينفجر حبا خالصا . انك تكونين سعيدة اذ تعرفين ان هذا البطل يحبك وتكونين أسعد لو أحببته . أتكرهينه ؟ لا . لا . كيف يمكن للكراهية ان تصل الى قلبك . اننا لا نكره الا الذين ينتزعوننا من أحبابنا . ولكن ما من احد يدعي حبك . ان قلبك هادىء ، فلو شعر ...

جان : ارحميني ، اندبي مصيري المقوت ..

الملكة : أي شيء يعوز كمال سعادتك . لقد انجزت وعدك وحررت فرنسا وستقودين الملك الى كنيسة ريمس حيث تتوجينه . ان اعمالك العظيمة قد اكسبتك شهرة خالدة . ان الشعب يمتدحك بل يعبدك. واسمك الآن شرف كل لسان . انك الهة هذا الاحتفال . ان الملك بتيجانه وعرشه لا يفوقك جلالا وروعة !

جان : أوه .. أأختفي في أعماق الارض ؟

الملكة : لماذا هذه العاطفة الحزينة ؟ ومن أين هذا الضيق الغريب . من

منا لا ينظر اليوم دون ان يخاف اذا ألقيت عينيك الى الارض • اني أشعر الآن بضآلتي بقربك • فأين لي فضائلك وبطولتك ؟ ليست شهرة فرنسا ــ وطني ــ ولا جلال تتويج الملك ولا سرور الجماهير المتجمعة يمس قلبي• انما شكل واحد ، صورة واحدة مقدسة في أعماقي • ليس فيه فراغ لأي شعور آخر الا" له وحده• هو المعبود الذي يباركه الشعب ويمجده، ولاجله تنثر الزهور والرياحين • هو مليكي هو حبي الصادق الوفي •

جان : انك سعيدة •• سعيدة حقا • انك تحبين حيث الكل يحب • يمكنك ان تظهري كل فرحك وسرورك في غير لوم • فان انتصار وطنك لحبك • وان تلك الجماهير التي تزدحم اليوم تهتف وتصفق تشاركك فرحك وتحييك • فأنت اليوم جزء من هذا الفرح الشامل • وما ترينه اليوم هو مجد حبك وعظمته •

الملكة : ــ وهي تميل عنقها عليها ــ انك تبهجينني • تستطيعين ان تقرئي ما في قلبي ، لقد أسأت اليك ، انك تعرفين ما هو الحب • لقد عبرت عن مشاعري بصوت القوة • ان قلبي ينسى خوفه الان ويندمج فيك •

جان : ــ وهي تجذب نفسها بعيدا في قوة ــ اتركيني •• اتركيني •• اذهبي بعيدا • لا تتعبي نفسك بالتحدث معي • اذهبي وفي اعماق الليل دعيني أخفي خطيئتي • يا لتعسي ويا لبؤسي !!

الملكة : انك تخيفينني من جديد • اني لا أفهمك ولم أفهمك • انك لا تزالين خافية علي • من ذا الذي يستطيع ان يسكن روحك الطاهرة المقدسة ؟

جان : انك انت التقية المقدسة • فلو انك رأيت دخيلة قلبي لوليت فرارا من العدوة الخائنة •

ثم يدخل دينوا باحثا عن جان لتحمل العلم وتسير امام الملك الى ريمس ، فترتجف جان وتصرخ بأعلى صوتها :

« لقد حنثت في يميني ودنست اسمك المقدس » وتهم بالرجوع فيتزاحم القوم عليها ويلصقون بها العلم ويسيرون بها الى الكنيسة • ولكنها لا تكاد تصل الى الكنيسة حتى تندفع بين الجماهير وهي تقول : « لا استطيع البقاء ان الارواح تطاردني • اسمع الانغام كأنها رعد قاصف • منظر القباب يخيفني • يجب ان انجو بنفسي • لقد تركت العلم ولن أمسه ثانية • يخيل الي اني أرى شقيقتي امامي كأني في حلم » • تتقدم اليها اختاها اذ كانتا قد جاءتا مع تلك الجماهير لتشاهدا حفلة التتويج ، فلا تكاد تصدق عينيها وتعجب ان يكون حلمها حقيقة • ثم تسألهما عن والدها وتأخذها الدهشة ويستولي عليها شعور جنوني فتقول « أين أنا ؟ أخبروني ! أكان كل هذا حلما طويلا ، ثم استيقظت الآن • وهل انا بعيدة عن قريتي ، وهل حقا نمت تحت تلك الشجرة الملعونة ثم استيقظت الان وحولي تلك الوجوه المألوفة ؟ لقد علمت بكل هذه المعارك والحروب • ان هذه كلها لم تكن الا خيالات مرت امامي » • فتجيبها اختها : اننا في « ريمس » ان هذه لم تكن أحلاما بل اعمالا قمت بها ، ارجعي الى صوابك • فتصيح جان : « تعالوا ، دعنا نهرب ، سأعود الى قريتنا •• الى صدر ابينا • ان هؤلاء الناس يمجدونني اكثر مما يجب ، سأتخلص من كل هذه المظاهر المقوتة التي كانت حائلا بيني وبينكم • وسأعود راعية كما كنت • وكفتاة متواضعة أقوم بخدمتكم وأتوب لاني رفعت نفسي عنكم » •

واذ تنتهي مراسم التتويج يتقدم من بين الصفوف رجل هرم هو « تيبو » والد جان • فيصيح في الملك والشعب : « ايها الملك المخدوع لا تظن انك محفوف بقوة الله • أيتها الجماهير الساذجة لقد انقذت بفنون جهنم • انكم مجانين حتى هذا الاسقف العاقل ، اذ ظننتم ان اله السماء ظهر

لكم في شخص هذا الفتاة الخاطئة • هناك في تلك البقعة الملعونة تحت ظل الشجرة المسحورة مرتع الارواح النجسة كانت تسكن هذه المشعوذة « لأجل جاه دنيوي • دعوها تكشف عن ذراعيها فسترون عليها علامات جهنم مطبوعة » • فتقف جان صامتة لا تفتح فاها ولا ترد عنها اتهام والدها • ويضطرب الشعب فيما بينه • ويدهش الملك والنبلاء من هذه المفاجأة الغريبة ، ثم يأمرها الملك ان تغادر المدينة آمنة ، فتنسل بين الجماهير التي ترتاع منها وتفر من وجهها وهي تقول : « الشيطانة الساحرة » • ثم يلحق بها « ريمون » خطيبها الاول ويدلجان في الغابات حتى يصلا الى كوخ أحد الحطابين فلا يكادان يدخلانه حتى يسمعا زوجة الحطاب تقص عليه قصة تلك الساحرة •

ثم لا يكاد ابنهما يلمح وجهها حتى يصيح : « هذه ساحرة أورليان » فيرتاع الرجل ويفر هاربا وتتبعه زوجه وابنهما • فتخرج جان وريمون ويستأنفان سيرهما في الغابة • فيسألها ريمون « لماذا صمتِّ امام اتهام والدك ؟ » فتجيبه جان : « لقد استسلمت صامتة الى مصيري لأني اعتقدت ان ما اراده ابي هو ارادة الله • ولست مخطئة في ذلك ولا حزينة ، فلا ضير يلحقني • نعم اني شريرة •• ولكني في وسط هذه البرية عرفت نفسي بعد ان تخلصت من ضوضاء الاحتفالات التي كانت تؤذيني • كان هناك صراع عنيف بيني وبين نفسي • كنت اتعس الناس عندما كان الجميع يحسدني ، والآن لقد عدت الى نفسي واصبحت هذه العواصف القوة التي تخيفك رفيقتي • لقد طهرتني كما طهرت العالم •• أشعر في قرارة نفسي بهدوء تام • لا أفكر فيما يأتي به الغد •• سيأتي ذلك اليوم الذي تنتزع فيه من اسمي هذه الشوائب التي لحقته عندما يدرك الذين طردوني الان خطأهم • سيأتي ذلك اليوم الذي يعلو فيه الحق » ثم تهاجمهما فرقة من جيش العدو فيفر « ريمون » مذعورا وتستسلم جان هادئة فيذهب بها العدو الى ملكته ثم

تلقى حبيبها « ليو نيل » فيحنو عليها ويتركها في حفظ الملكة الى المعركة .

ثم تسمع جان بانهزام جيشها وسقوط القائد دينوا واسر الملك، فتركع على ركبتيها وتصلي الى الله الرحيم ان يكون معها . ثـم تضرب قيودها بيديها فتحطمها ، وتندفع بين الجند ملتقطة سيف أحدهـم ، وتذهب الى المعركة ، فيتراجع الجند امامها ويرتد العدو مدحورا . تنقذ الملك ثم تقع فاقدة الاحساس ، فيظن الملك والنبلاء انها ماتت ولكنها تعود بعد قليل .. تفتح عينيها وعلى شفتيها ابتسامة الفرح وتقول :

« وهل حقا انني بين اصدقائي ؟ وهل يطردوني ثانية ؟ انهم يشفقون علي الان . لقد صفا عقلي ورجعت الي حواسي ، اني أرى ما حولي . هذا مليكي وهؤلاء حملة الاعلام . اني لا أرى علمي ، أيـن هـو ؟ بدونه لا أتجاسر أن أظهر ، لقد سلمه الي الهي ويجب ان اضعه أمام هذا الملك . يجب أن أراه هنا لأني حملته حقا » .

ثم يقدم اليها العلم فتمسك به وتهب واقفة غير مستندة الى أحد والعلم في يدها والسماء تشع بأضواء وردية . ثم تقول : « ألا تنظرون قوس قزح هذا ؟ ان فيه مقام العذراء وحولها الملائكة يترنمون في ثياب بيضاء . وعلى صدرها ابنها الخالد تضمه وتحنو عليه وهي تمد الي يديها الطاهرتين الآن في حنان وحب. ماذا يكون شأني ؟ ان السحب البيضاء تحملني. لقد أصبح درعي الثقيل ثوبا بأجنحة . سأمتطيه سأطير سينتهي العالم سريعا . مـا أقل الحزن ! ما اعظم الفرح ! » ثم يسقط العلم من يدها . وتقع هي على الارض ميتة . ويقف الكل صامتا خاشعا . ثم يأمـر الملك ان تلقى عليهـا الاعلام جميعها في رفق حتى تستر جسمها كله ...!!

بابيني
وابطال قصصه المبهمين

انجبت ايطاليا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عددا كبيرا من الادباء ، الذين اعادوا الى ايطاليا مكانتها الادبية والفنية التي اشتهرت بها حقبة من الزمن ، وكان من هؤلاء جيوفاني بابيني ، ولويجي بيرانديللو وجبرائيل دانتزيو . وتزعم اولهم محور الحياة الفكرية في ايطاليا انذاك ، وهو الدارس لمذاهب المدرسة الالمانية في الفلسفة ، وقد عاداه لويجي بيرانديللو ونصب قلمه لهدم عقيدته التي كانت ترسخ في اذهان الشباب ، موجها انظارهم الى مذاهب ادبية اخرى .

وكان الصراع يومذاك في اواخر القرن التاسع عشر على أشده بين هؤلاء الفرسان الثلاثة ، فكل منهم انتهج مذهبا ادبيا خاصا به ، معاديا مذهب صديقه ، وكانت هناك جمعية اطلق عليها اسم ـ جماعة شيناكولو الادبية ـ مسرحا لهذا التطاحن والصراع بين الاراء الثلاثة التي ينادي بها ثلاثتهم ، فالشاعر جبرائيل دانتزيو بشر بنظرية السوبرمان لينتشه، مما جعل بيرانديللو طيلة حياته خصما لدودا لدانتزيو . فقد رفض باحتقار ان يقبل آراء نيتشه . وكذلك ابدى احتقاره للاثواب الفخمة والانسجامات النائمة التي تميز بها الشاعر الدرامي المفرق في اللذة . اما بيرانديللو فقد كان فنه الروائي (وهو يشابه لحد ما مذهب جيوفاني بابيني) يدور حول الشعور بالحياة . ويؤدي الى فكرة مبهمة عامة ، اذا ما تطورت برزت امامها عقبات لصدها عن اتخاذ طريقها الطبيعي ، واهم هذه العقبات ما يتعلق بالدين والاخلاق والقوانين وما يجري للانسان في حياته العادية .

اما ادب بابيني فيرتكز على نظريات فلسفية تشربها من الفلاسفة الالمان ، وفيها يعبر بلسان ابطاله . وليس الادب في نظره سوى وسيلة ـ عربة ـ للحياة في الخيال والفرار من المتاعب المادية . فاذا جال بفكره موضوع رواية استسلم اليها وأحس انه بعيد عن وسطه الحقيقي ، ليحلق في الجو المصطنع الذي يبتكره خياله .

* * *

قليلة هي التراجم في اللغة العربية لكتاب ايطاليا الحديثين ، بل اننا نجد المكتبة العربية غارقة في الترجمات الادبية لكتاب انكليز واميركان وفرنسيين ، فقيرة فيمـا تحويـه لـلادب الايطالي ، وادب ايطاليا حري ان يترجم وأن تنقل درره للغة العربية ، وسوف يطلـع القـارىء على احدى القصص الرائعة لجيوفاني بابيني ، قصة غريبة الطابع والاسلوب، انتهج بها بابيني اسلوبا معينا ، ثم سار به الى الشوط النهائي ، وقصد منها معنى انساني كبير .



الرجل الذي ملكته يدي

لست اذكر على وجه التدقيق ذلك الوقت الذي ملكت فيه « اميكو دايت » ، فقد انصرفت عن تدوين مذكراتي منذ زمن بعيد ، حتى لا أكاد أذكر منها الآن الا ظلالا ضعيفة باهتة .

خرجت يوما من منزلي وما كدت اخطو في الشارع حتى شعرت ان رجلا يتبعني . كان هذا الرجل يناهز الاربعين ، يلبس معطفا طويلا أزرق ، ثم أخذ يتبعني على مسافة بعيدة ، فلم استطع ان التفت اليه واسأله السبب. لم أكن خارجا لأمر معين بل كان كل همي الابتعاد عن صوت الاخشاب وهي تحترق في الموقد ، لذلك أخذت أتلهى بمراقبة ذلك الرجل وان لم يسترعني منظره . كنت واثقا انه ليس مخبرا سريا لاني لم أكن من المشتغلين بالسياسة أو المغرمين بالتحدث فيها . ولم أظن هذا الرجل ذا المعطف الازرق لصا يتعقب كيس نقودي ، فقد كان الكل يعرف اني فقير .

أخذت أجول في الشوارع الملتوية وأخذ الرجل يتبعني ، وكان كلما مضى في طريقه ازددت سرورا . ثم ذهبت الى مكتب البريد لاشتري طابعا بعشرة قروش ، فجاء الرجل المجهول الى نفس الشباك واشترى طابعا من نفس النوع . ثم أخذت الترام فتبعني الرجل باسما ، ولما نزلت منه رأيته خلفي ، ثم اشتريت جريدة فاشترى الجريدة ، ثم جلست على مقعد فجلس على مقعد قريب مني ، ثم اخرجت لفافة فأخرج لفافة ايضا لم يشعلها حتى اشعلت لفافتي .

سرني كل هذا وأثارني في نفس الوقت. فقلت في نفسي : « قد يكون الرجل مازحا لا عمل له يريد أن يسلي نفسه على حسابي » واخيرا صممت على حل المسألة بأسرع طريق ممكن . فذهبت اليه ووقفت امامه كأنني اسأله من هو وماذا يريد . ولكن لم يكن ثمة حاجة الى السؤال ! ذهب واقفا ورفع قبعته وابتسم لي ثم قال في لهجة سريعة : « معذرة ، سأشرح كل شيء ، ولكن دعني أولا أقدم نفسي . اني اميكو دايت . ليس لدي عمل معين اللهم الا التافه ــ لدي الكثير من الاشياء أريد أن أفضي بها اليك . ولكن ... حسنا ... أريد ان اكتب اليك ــ لقد كتبت اليك فعلا مرتين بل ثلاث مرات ، ولكني لا أرسل دائما الخطابات التي اكتبها . أما ما عدا هذا فاني رجل عادي » .

وهنا أمسك عن الكلام هنيهة ثم اندفع يتحدث في عجلة كما لو كان قد تذكر شيئا مهما فجأة : أتريد ان تشرب شيئا ؟ كأسا من الخمر أو فنجانا من القهوة ؟ ثم مضينا مسرعين كما لو كان لدينا شوق ملح لفهم المسألة . وما كدنا نلمح مقهى حتى دلفنا اليه ــ كأولئك الذين يريدون أن يشربوا أي شيء في أسرع وقت ــ ثم جلسنا في ركن قريب من البار دون ان نطلب شيئا .

كان المقهى صغيرا تفوح فيه رائحة الدخان والخمر ــ ولكن لم يكن لدينا متسع من الوقت لأن نختار مقهى سواه .

ثم بدأت الكلام :

ــ أريد أن أعرف ...

فقاطعني الرجل قائلا :

ــ سأخبرك عن كل شيء، اني لا أريد ان اخفي عنك شيئا، وسأخبرك

حالا • ان ثقتي فيك عظيمة ، اني هنا أضع نفسي بين يديك تفعل بي ما تشاء •

ــ ولكني لست أرى •••

ــ أؤكد لك انك سترى كل شيء حالا •• دعني أشرح لك • ألم أخبرك من أنا • اني اعرف ان اسمي لم يعطك كل شيء عني • حسنا سأخبرك أي رجل أنا ــ اني رجل عادي جدا • ولكني اريد ان احيا حياة غريبة شاذة !

ــ اعفني •••

نعم • نعم سأعفيك من كل شيء • فقط ــ كما اخبرتك ــ يجب ان اقول ما يجب ان اقوله • اني أثق فيك كثيرا • ستكون منقذي وسيد جسمي وروحي ، اني شديد الحيطة ، شديد الاحترام • رجل فاضل ، أغار كثيرا على نفسي ••• لقد كتبت كثيرا من المسرحيات الخيالية وكثيرا من القصص الغريبة ، وقد عشت كثيرا بين ابطالك حتى اني كثيرا ما حلمت بهم في الليل وفكرت فيهم في النهار • أريد أن أترك وأن أنساه للابد •••

ــ أشكرك ••• ولكن •••

ــ أرجو أن تنتظر دقيقة واحدة • سأشرح لك لماذا فكرت فيك ، ولماذا تبعتك • منذ بضعة ايام ••• قلت في نفسي : انك مجنون • انك انسان عادي كأولئك الذين تقابلهم في كل مكان وفي كل يوم • انك في حاجة لأن تحيا حياة عظيمة رائعة • حياة كلها مخاطرات ومجازفات كأبطال تلك القصص الرخيصة التي تباع بفرنكين أو اربع • ان العمل الوحيد الذي تعمله هو ان تنظر حولك باحثا عن كاتب يصور أبطالا غريبة وتمنحه نفسك هدية يصنع بها ما يشاء ويصيرها الى شيء مثير حقا جميل غير منتظر ••

ــ وعلى ذلك تريدني أن •••؟

ـ دقيقة واحدة من فضلك • سأنفذ ما تريد حالا ، إني أملك نفسي الآن والشيء الذي أريد ان اخبرك عنه هو اني اخترتك لتكون مرشدي ، لذلك أقدم لك نفسي وأي مبلغ من المال تحتاج اليه لأن تجعل حياتي لذيذة ممتعة • انك واسع الخيال تستطيع ان تحطم سياج حياتي الراتبة • انـك ـ حتى الآن ـ لم تتسلط الا على اناس خياليين ، ولكنك اليوم قد حصلت على رجل حقيقي • رجل يتحرك ويقاسي ، يمكنك ان تتصرف فيه بما تشاء • اني اضع نفسي بين يديك ولكن ليس كجثة ، بل كلعبة آلية مدهشة تستطيع ان تتحدث وتضحك وتعمل ما تأمرها به • ومن الآن امنحك حياتي والف جنيه تصرفها فيما تحتاج اليه في جعل حياتي خيالية ـ رومانتيكية ـ لقد احضرت لك الوثيقة هنا في جيبي • أيهـا الخادم علينـا بالقلم والمداد ، لا ينقصها الا التاريخ والامضاء • قل نعم أو لا كما يتراءى لك ، ولكن قلهـا بسرعة •

فتظاهرت بالتفكير في الموضوع بضع ثوان، ولكني كنت قد انتهيت الى قرار في هذا• فقد جاء اميكو دايت يحقق لي احدى رغباتي القديمة اذ كنت دائما مطرقا حزينا لاني اخلق ابطالا في الخيال• وكثيرا ما فكرت في أوقات فراغي عما أعمله لو اتاني رجل حقيقي من لحم ودم • والآن لقد جاءني هذا الرجل بمبلغ من المال لا بأس به • ثم قلت بعد تظاهري بالتفكير في الموضوع :

ـ لن اضيع الوقت في المساومة • لذلك سأقبل ما عرضته علي وان كان يجب عليك أن تعرف عظم المسؤولية الملقاة علي في العناية بروح وجسد، دعنا ننظر في الشروط •

فسلمني أميكو دايت وثيقة رسمية قرأتها في لحظة قصيرة • كان كل شيء معدا • وبامضاء هذه الوثيقة اصبحت صاحب ثروة اميكـو وروحه ايضا تحت شرط واحد وهو ان اوجهه حالا الى ان يحيا حياة مخاطرة رائعة•

كان العقد لمدة سنة ولكنه قابل للتجديد اذا ارتاح اميكو الى الطريق الذي رسم له •

فوقعته بدون تردد ثم تركت أميكو في الحال بعد ان نهيته ألا يتبعني الا في حالة سكر شديدة • ثم وعدته ان اكتب اليه اليوم التالي •

لم اذهب الى الفراش ـ كعادتي ـ لقد كان لدي شيء جديد مهم يستدعي أن أقضي ليلة ساهرة من أجله • لقد أصبح الرجل لي • وفي استطاعتي ان اقوده ، أسوقه ، ارسله الى أي مكان اريد • وفي استطاعتي ان اجري عليه مختلف التجارب وان امنحه شتى الانفعالات وأسوقه الى أخطر المجاذفات • والآن ماذا أعمل له اليوم التالي ؟ أأمره ان يأتي أمرا دعينا ، أو أتركه في الظلام ثم ألقي عليه شيئا فجأة ؟ واخيرا اخترت شيئا يجمع بين الاثنين • فكتبت اليه اليوم الثاني ان ينام النهار كله ويمضي الليل كله خارج البيت يطوف وحيدا في جميع الامكنة المنعزلة • ثم استأجرت لي منزلا صغيرا خارج المدينة لمدة ستة اشهر واستأجرت ايضا اثنين من العاطلين، وفي اربعة ايام كان كل شيء على ما يرام • وفي المساء المعين تعقبت اميكو ، وعندما صار في مكان ناء عن المدينة انقض عليه الرجلان وساقاه الى البيت الذي أعددته • ومن سوء الحظ لم يرنا أحد ، ولم يعلن احد الى الحكومة عن اختفاء الرجل ، وعلى ذلك كنت مضطرا لأن ادفع للرجلين ثمن طعامهما طوال هذه الاشهر ، والسر في هذا أني لم يكن لدي أية فكرة عما اعمله مع هذا الرجل الذي اصبح ملكي • ففي أول مساء فكرت في ان اختطافه قد يكون بداية حسنة لحياة غريبة مثيرة ولكنني لم أعرف ماذا يحدث بعد ذلك، فقد كانت حياة اميكو كحياة الصحيفة اليومية في حاجة الى مادة جديدة دائما • لذلك لم أصل الى فكرة افضل من تلك الفكرة القديمة وهي ارسال امرأة تعيش معه في ذلك المنزل الذي سجنته فيه • امرأة متكدرة دائما لا تتحدث اليه ابدا • وقد كان العثور على هذه المرأة أمرا عسيرا وكيف ترضى

امرأة بهذا العمل وكيف تستطيع ان تشغل نفسها معه اكثر من شهر ؟ وبعد اسبوعين تبين لي ضرورة تغيير خططي كلها معه • لذلك أمرت الرجلين ان يطلقا رجليه فأرجعته الى بيته • ومنذ ذلك الوقت ادركت ان اميكو لم يكن رجلا عاديا كما قال لي عندما سلم الي نفسه ، فان الرجل الذي يتصور هذا النوع الدقيق جدا من الرق لهو رجل غريب حقا !• ثم عرفت رجلا ماهرا في لعب السيف اتفق ان يساعدني في هذه التجربة ، فقد حدث يوما وقت ان كان اميكو جالسا في أحد المقاهي الفاخرة يشرب كوبا من اللبن ان جاء هذا الرجل وحدق فيه ثم دفعه بيده ، ولم يكد اميكو ينطق بأول كلمة حتى كان صاحبنا شاهرا في وجهه سيفه يضربه ضربات خفيفة هادئة •

لم يكن صاحبنا يعرف شيئا عن المبارزة ولهذا كان يضربه بعنف وقوة في ابتداء المبارزة حتى انه جرح خصمه جرحا بليغا ، فانتهزت هذه الفرصة وأوضحت له ضرورة ترك المدينة حالا • ولكنه لم يرض ان يغادر المدينة ويتركني • وفضل ان يحاكم امام المحكمة فحكم عليه بالسجن ثلاثة اشهر • فظننته اني تحررت منه ، ولكن لم يمض على ذلك يوم حتى اخذت افكر ان واجبي يحتم علي ان اطلق سراحه ، لقد لاح لي ان هذا مستحيل ولكن – بوسائل الرشوة والمال – خرج صاحبنا من السجن •

كان مضطرا أن يذهب الى منفاه ، لذلك تركت عملي وبلدي وكل شيء لأعد له سبل النجاة • وعندما وصلنا الى لندن كنت في حيرة شديدة فلم أكن استطيع النطق بكلمة انجليزية ، ومع ذلك فقد كنت في موقف – كشأني دائما – يحتم علي ان اوجد لرجلي أي نوع من المفاجآت •

واخيرا لجأت الى مخبر سري امدني ببعض التعليمات السرية في لغة فرنسية ركيكة • وبعد استعراض خارطة لندن اخذت اميكو الى احد الاجزاء النائية ولكنه لم يصبه شيء هناك •

ثم خطر لي ان ارسل اميكو وحده الى شمال انجلترا • فأعطيته عشرين شلنا فوق اجرة السكة الحديدية • ولأنه لم يكن يعرف الانجليزية فقد تمنيت ان يلم به حادث مكدر فلا يرجع بالمرة ، حيث اخذت اضيق بذلك الرجل الذي امتلكته والذي من اجله اشتغلت كثيرا وضحيت كثيرا •

لقد كنت ارقب ذلك اليوم الذي ارجع فيه الى مدينتي القديمة المحبوبة المملوءة بالمقاهي والكسالى ، ولكن بعد مضي اسبوعين عاد اميكو دايت الى لندن في صحة جيدة وروح طيبة ، فقد اجتمع هناك بصديق ايطالي كان قد جاء الى ادنبرة فدعاه الى الاقامة معه •

ولكني لم أيأس تماما • فقد قرأت في احدى الصحف عن ناد « للدراسات الروحية » في حاجة الى اعضاء جدد • وقد وعدهم انهم سيرون أرواحا حقيقية وأشباحا تتكلم وهكذا • فأمرت أميكو ان يلتحق بهذا النادي حالا وأن يتردد عليه بانتظام كل مساء ، فذهب اليه اسبوعا ولكنه لم ير شيئا • ثم جاء في يوم من الايام وأخبرني انه قابل شبحا بالفعل ولكن هذا لم يكن اكثر من رجل عادي •

ـ حسنا اني لا أرى شيئا غريبا فيما صنعته معي • معذرة اذا تكلمت معك في صراحة • ولكني اظن انك توافقني على انك أتيت بالعبقري الشاذ في قصصك وابتكرت خيالا اكثر متعة ولذة معا في الحياة الواقعية • فكر فقط •

خطف ثم امرأة متنكرة ثم مبارزة ثم نجاة ، والآن الاشباح • يظهر انك عاجز عن التفكير في شيء افضل من هذه الحيل المألوفة التي تجدها كثيرا في الصحف اني لا استطيع ان افهم خسوف خيالك الفجائي •

« لقد كنت في بادىء الامر أنفذ كل شيء تأمرني به مترقبا حياة قوية تستثير العواطف ، ولكن سرعان ما وصلت الى الخاتمة وهي ان حياتك

كحياة أي انسان آخر • والآن اني ارتاب ايضا في مقدرتك ، فانك لم تجد شيئا افضل من هذا تعمله معي • سأبحث عن سيد آخر حتى قبل انتهاء العقد الذي بيننا » •

فحالت الكبرياء دون أن أجيب عن هذا الجحود الغريب ـ ففكرت في نفسي ـ كيف اني تسلطت على ذلك الرجل ـ لم اكن سيد نفسي ـ لقد اضطررت ان اترك كل عملي في منتصفه ، وان اترك بلادي وأجهد نفسي في ابتكار المخاطرات الخيالية ، واستأجر الناس يعينونني على تنفيذها • لقد ضحيت بحياتي من اجله ، أنا الذي ادعى سيده اسميا عبد له في الواقع • واخيرا كتبت له الخطاب الآتي :

عزيزي أميكو دايت :

« ما دمت قد اصبحت ملكا لي بمقتضى العقد العرفي الذي بيننا ، استطيع ان اتصرف في حياتك أو موتك ، فاني آمرك ان تحبس نفسك في حجرتك الساعة الثامنة من مساء يوم السبت ، وتنام على فراشك وتأخذ واحدا من هذه « الاقراص » الملفوفة ، وفي منتصف الساعة التاسعة تأخذ قرصا آخر وفي التاسعة تماما تأخذ ثالثا • فان عصيت أمري فاني القي عن نفسي المسؤولية » •

كنت اعرف ان اميكو دايت لا يهاب الموت ، ومع انه كان وحيدا الا انه كان رجل شرف وامانة يحترم كلمته وامضاءه • ثم اشتريت مقيئا قويا ودبرت امري ان اكون في منزله قبل التاسعة ـ أي قبل ان يأخذ آخر قرص لو أخذه لمات لساعته •

وفي مساء السبت ناديت حوذيا في الساعة الثامنة لأني كنت اقطن منزلا بعيدا خارج المدينة • لم يبدأ الحوذي سيره الا في الثامنة والربع لذلك شددت عليه الاسراع • فانطلقت العربة تطوي الارض طيا ، ولكن

بعد عشر دقائق عثر الجواد في حافره فتوقف عن السير • فأسرعت الى حوذي آخر كان من حسن الحظ قريبا مني وقدرت ان اكون في الساعة التاسعة تماما في منزل اميكو دايت • انطلقت العربة في الطريق حتى وصلنا الى شارع رئيسي مملوء بعربات النقل والركاب ، فرفع رجل الشرطة يده اشارة للوقوف • فقفزت من العربة كالمجنون واندفعت اليه وحاولت ان افهمه اني ذاهب في أمر مستعجل تتوقف عليه حياة رجل • ولكنه لم يفهم أو لم يرد ان يفهم ــ فاضطررت ان اقطع المسافة الباقية على قدميّ • ولكن نظرا للضباب المتكاثف ولأني لم اكن اعرف لندن تماما ضللت الطريق فوصلت الى المنزل بعد التاسعة بعشر دقائق •

قرعت الجرس في عنف وسرعة وما كاد الباب يفتح حتى اندفعت الى حجرة اميكو فوجدته مستلقيا على فراشه شاحب اللون متقلص العضلات كأنه جثة هامدة ــ فهززته وناديته باسمه وتحسست قلبه ولكنه لم يكن ينبض • لقد كان حقا جسما هامدا •

كان الصندوق الصغير الذي ارسلته اليه فارغا • لقد احتفظ الرجل بكلمته حتى النهاية • لقد أردت ان أريه رعب الموت الحقيقي ثم هزة الصحو العنيفة ، ولكني اسلمته الى موت ابدي محقق • قضيت الليلة زاهلا • وفي الصباح وجدت نفسي مع الميت شاحبا صامتا كما كان •

واخيرا عرف الامر وقدمت للمحاكمة ، وكانت قصيرة لأني لم اقدم دفاعا ولم أظهر العقد الذي كنت محتفظا به •

لقد مضى علي عدة سنوات منذ ان كنت في السجن ، ولكنني لست آسفا لما حدث • لقد جعل اميكو حياتي جديرة بالتحدث عنها ، ولست أظن اني اسأت التصرف معه فقد صرفت في السنة التي قضاها ملكا لي اكثر من الالف جنيه التي قدمها لي •

اندريه توريبه
والمدارس الادبية الفرنسية

حفل الادب الفرنسي بشتى النزعات الادبية التي مرت على الانسانية في عصورها الحديثة. وكانت هناك مدارس اقترنت بكبار الكتاب كبلزاك وغيره ، ممن اوجدوا مفاهيم جديدة للادب العالمي كانت قبل ذلك منسية مجهولة . وظهرت في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القـرن العشرين نزعة جديدة في الادب الفرنسي عالجت الفضيلة والرذيلة علـى ضـوء مفاهيم جديدة للعصر الذي اوجدت فيه ، وكان من هؤلاء الكتاب اندريه توريبه الكاتب الفرنسي الكبير، عضو الاكاديمية الفرنسية وزميله الروائي المجدد رينيه ميزروا ، وقد عالجا في قصصهما مواضيع تتصل بالشرف والدين والفضيلة ووخز الضمير ، فكانت هذه القصص أقرب الـى مسرحيات فريدريك شيللر منها الى بلزاك .

والغيرة احدى روائع اندريه توريبه عالج فيها مشكلة اجتماعية ، تحدث احيانا في مجتمعنا وهي غيرة الام من ابنتها عندما تتزوج شابا ذا رجولة كاملة ، وتكون الام ارملة ، أو انها لم تجد من زوجها العطف الكافي ، فتقع في حب زوج ابنتها وتحاول ان تتمثل نفسها كانهـا الزوجة لا أم الزوجة .

في هذا الاطار تدور حوادث قصة « الغيرة » .

الغيرة

كانت الشمس تميل نحو الغروب وقد اصطبغ الافق بلـون ارجواني دام ، واكتنفت الطبيعة وحشة كتلك التي غمرت قلب فرناند وهي جالسة تجاه نافذة مخدعها ، تسرح البصر في أسراب الغيوم وهي تحتضن الشمس مسلمة اياها الى عالم الظلام والفناء •

وأشفقت الفتاة على هذا النور الساطع من التقلص والتبدد والانحدار الى جوف الليل السحيق ، فظلت تحدق الى الشمس الهاوية ، كأنما هـي تتمثل فيها حياتها ومستقبلها ومصيرها المحتوم •

ولكن ألا يعقب الظلمة النور ، ألا تصدر الحياة عن الموت ، ألا يخرج النهار وضاح الجبين رائع الفتنة من صلب الليل البهيم ؟••

أجل •• ان الامل أقوى من اليأس ، والغد أبقى مـن اليوم ، ولكن هذا اليوم بآلامه الفظيعة هو الذي يحتل القلب ويستبد بالمشاعر ويفسد في الخيال الملتهب أجمل صور الغد وابدعها !••

وفرناند لا تفكر الساعة الا في يومها ، وفي ماضيها القريب الماثل الآن في فسحة عقلها وفي هذا الألم المبرح العميق الذي عصف بها ، وأوشك أن يجرد شبابها من كل قوة وكل نشاط وكل أمل ! ان نفسها الطاهرة البريئة ، انطوت على ذاتها ، وبرمت بالناس ، وأبغضت الحياة ، وكرهت كـل شيء فيها •

وكيف لا تكره فرناند الحياة وهي منبوذة منها ، وكيف لا تفر من الناس وهم يلفظونها ، وكيف لا تسخط على القدر وهو يطاردها ويأبى الا ان يسومها مختلف صنوف العذاب ؟

ان تلك العبارة اللاذعة الخارقة التي يرتسم معناها على كل وجه وينطق بها كل لسان ، تلك العبارة الشائنة المروعة ما تنفك ترن في أذنها وتهتاج أعصابها وتهز كيانها من الاعماق •

« فرناند ابنة حرام » ابنة السيدة جوليا واييه فقط ، ابنة الغانية جوليا فقط ، أما والدها فرجل مجهول ، انسان أقبل وتمتع ثم هرب ، مخلوق أناني مجرم هزأ بواجبه وتنصل من مسؤوليته وخلف عشيقته وابنتها ، نهب الضعة والفاقة والتبذل والانحطاط !

الجميع يعرفون ذلك ، وأنبل الناس وأكرمهم لا يغض الطرف عنه الا ليسدد الاهانة ويرسلها في صميم القلب والروح • ولقد احتملت فرناند هذه الاهانة في المدرسة أيام كانت طفلة ، وفي الكلية عندما اصبحت طالبة ، وفي المجتمع يوم ان دخلته آنسة مكتملة ، وفي المصرف الذي تعمل الآن فيه بمعزل عن رفيقاتها وعن زملائها الشبان الذين يحاولون اتخاذها أداة للهو والتسلية •

غير ان هذا الشقاء يهون ، وتفتر حدته ، ويخمد أثره ، بل يستحيل الى سعادة ورضا ، لو عادت السيدة جوليا الى رشدها ، ونزلت عن خلاعتها وكبريائها ، وارتدت الى محيط الاسرة ، وأصبحت خليقة بلقب أم ووالدة !

هذا هو الذي يحز الآن في صدر فرناند !

ان أمها تأبى ان لا تسلك السبيل الذي ألفته ودرجت عليه وكان السبب في شقاء ابنتها ، تأبى الا ان تعيش حرة من كل واجب ، مطلقة من

كل قيد ، مستسلمة لغرائزها منساقة وراء عشيقها الجديد ، مفنية فيه نفسها ، تنفق على ذاتها وعليه من مال ابنتها !

فالبنت تعمل وتربح اجرها بعرق جبينها ، والام تستغل عملها وتبدد صفوة جهودها في سوق الغواية والهوى •

ولقد أفضى عرفان الجميل بفرناند الى التغاضي أول الامر عن مسلك والدتها ، فهي التي سهرت عليها وهي التي عنيت بها ، وهي التي لم تدخر وسعا في سبيل تعليمها • ولكن أكان الغرض من هذه العناية ذات الباعث الشريف ، ان تنحرف يوما وتتجه في طريق مخالف للشرف والاستقامة ونبل الضمير ؟

ذلك ما تريده السيدة جوليا ، ولقد أسرفت فيه بالامس اسرافا بلغ حدا من التبذل والانحطاط الشيء الكثير ، أرادت انقاذ عشيقها الجديد من ورطة مالية ، فانسلت تحت جنح الظلام الى هنا ، الى مخدع ابنتها في اثناء نومها ، وفتحت درج خزانتها الصغير ، وسرقت مبلغا من المال هو كل ما ادخرته فرناند في ثلاث سنوات قضتها في عمل مرهق ، وذل عميق • سرقت المبلغ ثم جاءت الى ابنتها صباح اليوم ، وفي قحة غريبة مشوبة بالقسوة والتحدي ، صارحتها بأنها هي السارقة ، وان المبلغ من حقها ، وانه جزء مما لها في عنق ابنتها من جميل •

تجاه هذا الحادث ثارت ثائرة فرناند، وانفجر كامن سخطها واستيقظت كرامتها ، وأحست نفسها مسؤولة بتغاضيها عن التدهور الخلقي الذي آلت اليه أمها ، فهددتها بقبض اليد عنها ، والتبرؤ منها ، وترك البيت ، ان هي لم ترتدع وتثب الى رشدها ،وتتخلى اليوم بل الساعة عن عشيقها ، فاختبلت الام وجاش غضبها ، ولكنها سرعان ما هزت كتفيها ساخرة وانصرفت مقهقهة تحمل مال العمل المقدس غنيمة باردة لخليلها •

وها هي ذي فرناند تفكر في هذا كله وتفيض من عينيها الدموع •

لقد غابت الشمس وتقطرت في الافق البعيد كدمعة كبيرة ، وأظلم الجو ، وترامت الظلال على الارض ، وبدأت الشوارع تلمع ، وأخذ النور ، النور الصناعي ، نور الانسان المدرك العاقل ، يحل شيئا فشيئا محل نور السماء •

الانسان المدرك العاقل ؟•• كلا •• الانسان القوي الجبار صاحب الارادة التي لا تقاوم !

نعم ، لا عقل ولا علم ولا ادراك بلا ارادة، ولا راحة ولا خلاص ولا خير بغير ارادة •• واذن فلتحزم فرناند أمرها ، ولتضرم النار في ارادتها ، ولتحرم أمها المال حتى ترتد وترعوي •

هذا اليوم هو آخر ايام الشهر ، وقد تقاضت فيه فرناند مرتبها ، فعليها ان تحتفظ به وتساوم عليه ولا تنفق منه فرنكا واحدا الا في مقابل عودة الام الضالة الى حظيرة البيت !

واستحوذت عليها هذه الفكرة وتمكنت منها ، واقترنت بصورة لاحت لها فجأة ، فاستضاء محياها وأبرقت أساريرها ، ونهضت ، ثم أسرعت فألقت عليها معطفها ، واختطفت قبعتها ، وغادرت البيت ميممة وجهها شطر منزل « ادغار مونتيبيه » اخلص زملائها واقربهم الى نفسها ، والرجل الوحيد الذي تعبده وتخشى لفرط احساسها ذل ماضيها وعار حاضرها ان تكاشفه بهذا الحب فتبوء بخيبة الامل وضيعة المسعى !••

وفي هذه اللحظة نفسها كانت السيدة جوليا تغادر منزل عشيقها ، شاحبة الوجه ، مغضنة التقاطيع ، مضطربة قلقة حائرة ، تضرب في الشوارع على غير هدى وتصطدم بالناس ، وتجفل كلما وقع بصرها على صديقة أو صديق •

ضاق صدرها ذرعا بعشيقها ، ولم يكفه المبلغ الذي حملته اليه ولم يكترث للجرم الذي اقترفته من أجله ، بل طلب المزيد وألح في الطلب واعرض عن المرأة الواجمة الذليلة وأغلظ لها القول وصرفها دون رحمة •

والواقع ان جوليا كانت لا تحب عشيقها شارل ذلك الحب الذي يدفع المرأة الى الرضا بالحياة في أقصى حدود الذل •

كانت تتعلق به زهوا منها وكبرياء وتفاخرا بأنها ما تزال صبية ، وما يزال جمالها يطمع فيه الرجال • وكانت السيدة جوليا في السابعة والاربعين من عمرها ، مديدة القامة ، عريضة الصدر ، ممتلئة البدن ، ذات شعر اسود خطه الشيب ، وعينين لامعتين ساحرتين ، وبشرة مرمرية فاتنة ، وكان كل همها في الحياة ان تحتفظ بالبقية الباقية من شبابها وتكافح الشيخوخة ما استطاعت وتثأر لنفسها من عبث المقادير وغدر الزمن •

ولقد انحصرت صفوة جهودها في الفوز الجنوني العاجل بأوفر متع الحياة وأعمقها، فكانت ترتدي احدث الاثواب وتتهافت في اتباع «المودات» وتنفق على أزيائها من مال ابنتها بلا حساب ، فتبدو في الاندية والمجتمعات ودور اللهو ، زاخرة البدن بأنواع الحلي الصناعية ، تغمر وجهها المساحيق، ويمسخ جمالها شعرها المصبوغ ، وتضاعف شذوذ مظهرها أثواب حديثة الطراز لم تصنع لها ولا يمكن ان تتفق مع سنها أو تتناسب مع قامتها ، وميلها الى الترهل والسمنة •

وكانت تبعث السخرية والاشمئزاز في نفوس الشبان ، ولكن رغبة الحياة كانت تخيم على بصرها وتذهب بلبها وتدفعها الى مطاردة الشباب فتزيد في نفرة الناس منها واحتقارهم لها •

غير انها لم تشعر بالخجل ابدا ولا بالعار • طوح بها جنون الكهولة ، وملكتها ارادة الحياة ، واستبد بها خيال الحب ، فشرعت تبحث عنه ،

وتتهالك على وهمه ، وقد عز عليها ان تودع الشباب والجمال دون ان تفوز للمرة الاخيرة بلذة الحب ونعيم الهوى •

ولقد ارتضت هــذه العلاقة بشارل ، لا لأنها كانت تحبه ، ولا لأنها وجدت فيه الرجل المنشود ، والعاطفة المبتغاة ، بل لأنه كان الرجل الوحيد الذي رضي بها ، والذي استطاعت ان تحتفظ به وتخضعه بقوة المال •

ولكنها الآن وقد اجتواها العشيق وبرم بها، ولم يقدر عظيم تضحيتها، ثارت ثائرتها عليه واستنكرت جحوده• وأحست انها قد خدعت نفسها عندما اعتقدت ان في مقدورها ان تشتري الحب بالمال !

وانطلقت تحت الخطى مطرقة الرأس ، ساهمة الطرف ، ترمق واجهات المخازن الآونة بعد الاخرى ، وصدرها يعلو ويهبط ، وقلبها يكاد يثب حنقا وحسرة ، حتى أشرفت على دارها ولاحت لها عن بعد نافذة مخدعها مفتوحة المصراعين أشبه بطائر قد نشر اجنحته وتأهب للتحليق والفرار •

تقدمت بضع خطوات ثم تراجعت بغتة وجمدت في مكانها ، تراجعت ووضعت يدها على قلبها وخيل اليها ان قوة هائلة ، ان ريحـــا عـــاتية ، ان عاصفة مجتاحة انقضت عليها ثم جرفتها وجعلت تدور بها في شبه اعصار •

وتقدمت بضع خطوات أخرى وهي تحدق الى نقطة واحدة وهيكل واحد •

ابصرت ابنتها فرناند واقفة عند عتبة البيت تتحدث الى شاب لم تقع عين جوليا على أنضر منه ولا أكمل وأفتن •

شاب خمري اللون ، مفتول العضل ، وضاح الجبين ، يفيض مظهره اناقة ورجولة وسحرا •

ارتعدت جوليا وتقدمت ايضا ، وشد ما كانت دهشتها عندما ابصرت ابنتها متهللة الوجه باسمة الثغر تضحك وترحب بها أجمل ترحيب وتعرفها

الى السيد ادغار مونتيبيه ، ثم تدعوه للصعود الى البيت ، فيعتـذر بعبارة رشيقة ملؤها الادب والظرف •

وبسطت السيدة جوليا يدها للشاب وصافحته وهـي ترتجف ، ثـم حولت بصرها نحو الفتاة ، فأحست كأن يدا غليظة تقبض على عنقها ، فلـم تستطع الوقوف واستدارت وأسرعت بالدخول وهي تزفر •

ولم تـكد تنقضي بضع دقائق حتى فتح باب مخدعهـا والفت نفسهـا وجها لوجه تجاه فرناند !

وجلست الفتاة على مقعد وقالت في هدوء :

ــ أماه ، يجب ان تقطعي كل صلة لك بالسيد شارل !

فأشاحت السيدة بوجهها ولم تتكلم ، فاهتاجت اعصاب الفتاة وزايلت محياها امارات الفرح واردفت قائلة بصوت عازم جهير !

ــ اما أن تثوبي الى رشدك ، واما ان أغادر البيت •• لن أطيعك بعد اليوم • لن ألبي داعي الشفقة والبنوة والحنان ، فامنحك من مالي ما اعلم انه سوف ينفق على الملذات ! كفاني ما احتملت • ان مسؤوليتي ترهقني ، ولولا نقودي ، مـا تشجعت علـى المضـي فـي طريق الرذيلة والاثـم • فأنا أنذرك الآن ! وأنت مخيرة بين حياة الشارع وحياة البيت •• ويجب أن تختاري لا سيما وأنا •••

وصمتت فرناند لحظة فتطلعت اليها جوليا وقالت :

ــ وأنت ماذا ؟•••

فأجابت الفتاة وقد لمعت عيناها :

ــ وأنا مقدمة على الزواج !

فصاحت الام صيحة مبتهجة غريبة :

ــ الزواج بمن ؟

فقالت الفتاة وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة قريرة هانئة :

ـ بذلك الشاب الذي رأيتيه ، بزميلي السيد ادغار مو نتبيه !

فشرد بصر جوليا واختلجت اختلاجا خفيفا ثم أغمضت عينيها وقالت في شبه غمغمة :

ـ اعدك بكل شيء ! لن أرى شارل ولن اخرج بعد اليوم الا في صحبتك .

ولم تصدق فرناند سمعها وجمح بها السرور ففتحت ذراعيها وضمت امها الى صدرها وطفقت تقبلها قبلات شكر تائهة محمومة ، والام تنظر اليها زائغة البصر جامدة البدن كأنها تمثال !...

وانفتح جو من الحياة امام فرناند .

أحرزت النصر المزدوج الذي طالما تطلعت اليه . أنقذت امها من براثن الدعارة ، وردتها الى محيط الاسرة ، وفازت بالشاب الذي تعبد ، وأدركت ان حبها الخالص ، وولاءها المطلق ، وخلقها الكريم ، وقلبها الطيب ، ومسلكها الشريف ، جميع هذه العوامل أكسبتها فؤاد ادغار ، فأحبها ورضي التزوج منها برغم انها ابنة حرام وان الكل يعلمون ان امها كانت من الغانيات أنصاف الحرائر المبتذلات الخليعات .

وشرع ادغار يزور البيت ، ويوثق روابط الصداقة والالفة بينه وبين الام والفتاة ، ويعد معدات الخطبة ، ويتحدث عن هنائه القريب ، ويبذل قصاراه في ادخال السرور على قلب فرناند .

وأما فرناند فقد شعرت كأن الحظ قد دان لها ، والامل قد استحال الى حقيقة وأقبل عليها ، فلم تعد تستطيع كتمان عواطفها ، وأخذت تمرح كطفل أفلت من مرض ، وقد امتلأ بدنها وتورد خداها واكتست حلة رائعة من الجمال والعافية .

اطمأنت الى حبيبها واطمأنت ايضا الى مسلك والدتها ، فأسلمت نفسها بجميع قواها الى عالم الغبطة والفرح •

ولكن هل يطمئن عاقل لتطور القلب البشري ، وهل في مقدور انسان كبح الغريزة متى انطلقت وزينت لها الشهوات صور التهلكة ؟

ان نفس السيدة جوليا لم تقر لحظة الا لتثور ، ولم تخمد الا لتلتهب، ولم تسكن مختارة الا لتتحفز للوثوب •

لقد افتتنت بجمال ادغار ، وأخذتها عاصفة حبه في أقل من لحظة ، فتخلت عن عشيقها من أجله ، وعادت الى حياة الاسرة من اجله ، والفت عيش البساطة والهدوء من اجله ، ولم يخطر على بالها أنها بهذا الحب تسلب ابنتها الحياة بعد المال وتقضي على شبابها ومستقبلها القضاء المبرم !

استغرقتها عاطفتها الآثمة الجديدة التي ولدتها جرثومة الشر ، جرثومة الانانية ، جرثومة الرذيلة التي خيل لفرناند انها قد ماتت واستؤصلت الى الابد •

احتلت صورة ادغار خيال جوليا، وتركزت في الشاب آمالها ومطامعها وحبها وغرامها بالشباب ، فبدا منها ما أيقظ الفتاة من غفلتها وفتح بصرها على الهوة التي أوشكت على التردي فيها •

لمحت فرناند في حديث أمها مع الشاب نغمة شاذة ، وفي حركاتها طابعا غريبا ، وفي نظراتها ولفتاتها المرتبكة الحيرى ذلك الخوف العميق المقترن بالاغراء الصامت ، المتزج بالدهاء والمكر الدال على تبدل المرأة وانسحاقها تحت عاطفة الحب •

أدركت فرناند بسليقتها كل شيء ، ولكن ــ ادغار ــ لفرط انصرافه اليها ــ لم ير شيئا •

وكانت الفتاة برغم يقينها تراجع نفسها غير مصدقة ، ولكنها في ذات

مساء وقد شاهدت امها تسرف في التلطف مع الشاب وترسل اليه من خلال اهدابها المصبوغة نظـرات عشـق طويلـة فاضحة ، استهولت الحقيقـة واستشعرت الخطر الذي يتهددها وأحست لأول مرة احساسا طاغيا عنيفا بأن هذه المرأة التي اعتصرتها بالأمس وسرقت مالها وجهد شبابها ، لن تتأخر في الغد عن سرقة حياتها ، فوقعت بين عاملين وعادت من جديد فريسة الهم والشقاء .

كان عليها اما ان تغامر وتقترن بحبيبها فتوثق صلة المودة بينـه وبين والدتها وتعرض سعادتها الزوجية لشر الاخطار ، واما ان تقدم على التضحية العظمى فتخنق حبها وتعدل عن فكرةالزواج، اتقاء لغـدر المستقبل وانقاذا لوالدتها وحرصا على البقية الباقية مما في فؤادها من عاطفة البنوة وفضيلة عرفان الجميل .

واضطربت فرناند وجعلت تتخبط بين هذين العاملين ، واسودت الدنيا في عينيها ، وخيل اليها ان القدر يأبى الا ان يجعل منها ضحية امها ، فلـم تجد بدا من الاذعان والتسليم .

أنكرت نفسها ، جادت بحبها عن طيبة خاطر ، ضحت بالرجل الـذي امتلكته بعد جهاد طويل وفي رجعة من رجعات التفكير ووثبة مـن وثبات الارادة أعلنته بعزمها فجأة وطلبت اليه في تحفظ وأدب ان يكف، عـن زيارة البيت .

دهش الشاب واستولى عليه شبه ذهول ، ولما استفسرها سر انقلابها تذرعت بالصمت ثم اصطنعت الفتور والاعراض، وذكرت انها كانت مخدوعة في عواطفها ، وانها لا تحبه ولا تستطيع ان تحبه كما يستحق وكمـا يجب أن يحب .

روعت ادغـار هـذه الكلمات ، واهتاجت كبرياؤه وأثـارت فيـه

الوساوس والشكوك ، وتطور تأثيرها في نفسه واستحال الى غيرة شديدة مقرونة بالغضب والسخط والاستنكار •

اعتقد ان فرناند تحب سواه ، وان ضميرها استيقظ في اللحظة الاخيرة وأشعرها ان من العار عليها ان تحاول الجمع بين زوج وعشيق •

هذا الاعتقاد جسمته الغيرة ، فتأصل في نفس الشاب ، وانقلب الى حقد هائل ، الى احساس قوي بأن فرناند هي ابنة جوليا ، قدت على غرار امها اخلاقا وطباعا وفساد نفس •

تجاه هذه الاهانة الموجهة اليها من أعز الناس عليها لم تستطع الفتاة الاحتفاظ بالصمت ••

ضاق صدرها ذرعا بآلامها ، ورزحت تحت وطأة تضحيتها ، فاعترفت للشاب بكل شيء ، ألقت أمامه بحمل فؤادها ، كشفت له عن سر عذابها ، لاذت به ، استصرخته طالبة الرحمة ، التمست اليه ان يقدر موقفها ويثق بحبها ويدعها لشقائها ويصفح ويبتعد ويتوارى •

ولكن ادغار كان رجلا ، شديد الايمان برجولته ، قويا في الدفاع عن حقه ، مطمئنا غاية الاطمئنان لمتانة حبه ، واثقا كل الثقة بسلطان ارادته ، فلم يكد يقف على حقيقة مخاوف فرناند ، حتى هزأ بها وسخر منها واعتبرها اهانة له ، واستنكر من الفتاة ان تعتقد فيه الضعف وتتصور انه قد يفقد صوابه يوما فيطاوع امها ويرتكب في حق نفسه وحق زوجه افظع الجرائم •

وما زال بالفتاة يطمئنها ، ويسمعها صوت العقل والقلب ، ويقسم لها اغلظ الايمان على وفائه ، ويعدها باتباع الحزم في معاملة والدتها ، حتى تمكن منها وبدد اوهامها ورضيت بالزواج منه !

وعقد الزواج في صباح يوم أحد ، واحتملته جوليا ساكنة هادئة ، وفرناند ترقبها وتحاول وهي تبتسم وتضحك وتخاطب المدعوين ، ان

تستشف من خلال نظرات امها ، مبلغ ما يكنه فؤادها من رغبة الخضوع أو ارادة الشر والانتقام واحداث الأذى .

وعاشت فرناند في قلق دائم موزعة الفكر بين مسلك امها ومسلك زوجها .

عاشت تلحظ هذه وترقب ذاك ، والخوف يضنيها ، وعدم الاستقرار ينهكها ويسمم أحلى ساعات غرامها وأمتعها . وكانت تحصي على أمها كل حركة وكل اشارة ، كانت تراها وهي تسرف في التجمل والتبرج ، وتسرف في التلطف مع ادغار ، وتسرف في امتداح اناقته ، والاعجاب بجماله ، فتضطرب ويتملكها الذعر ، ولكنها عندما كانت تحدق الى زوجها فتراه ثابتا جامدا معرضا يبتسم ابتسامة ساخرة خفيفة ويهز رأسه ، كان الاطمئنان يعاودها والرعب يزايلها والسكون الموقت يحل في نفسها المعذبة محل القلق والشك .

وهكذا انقضت ثلاثة اشهر على زواجها ، ثلاثة اشهر وقعت فيها معجزة !

أشرق محيا الأم وازدهرت قسماتها وتألقت أنوثتها ، وكأن وجود ادغار بقربها قد افاض عليها من نوره ذلك الشباب المجدد الذي كان غاية حياتها .

والعجيب ان فرناند — لاتصالها اليومي بوالدتها — لم تشعر شعورا قويا بهذا التبدل الطارىء في مظهرها . وكانت قد ازدادت ثقة بزوجها فغضت الطرف عن هنات أمها وتجاوزت واستسلمت للحياة آمنة على حبها ومستقبلها .

ونامت عين الفتاة ولكن عين الام لم تنم .

كان حب جوليا يغلي في صدرها ويتحين الفرصة للانفجار ، وكانت

العاصفة الوجدانية ما تزال تطوح بها كما تطوح ريح الخريف بأوراق شجرة ذابلة • وكانت حياتها منصرفة الى التفكير في اللحظة التي يمكن ان يجود بها القدر ، والتي يمكن أن تخلو فيها بادغار بعيدا عن سمع فرناند وبصرها•

وشاءت المصادفة الفاجعة ان يتحقق هذا الامل •

أصيب والد ادغار بمرض خيف منه على حياته • فكان لا بد لفرناند وزوجها من قضاء بضعة ايام في صحبة الشيخ المريض • وكان ادغار مضطرا للتردد على بيته حيث يجد ما يحتاج اليه من كتب وأوراق •

ففي ذات ليلة هادئة هدوء الحلم ، صافية السماء ، رقيقة الهواء ، يصب قمرها شعاعه الساطع على الاشياء والاشخاص كأنه شبكة رائعة من الفضة الخالصة ، صعد ادغار الى مخدعه وفتح درج مكتبه وتزود ببعض أوراق مالية مما يجب انفاقه على والده المريض • وانه ليهم بترك المخدع والانصراف الى حيث تنتظره زوجته ، واذا بالباب يصر ويفتح على مهل وتدخل منه جوليا باسمة الثغر وئيدة الخطى وعليها غلالة فضفاضة زرقاء تسبح أطرافها في ضوء القمر •

تقدمت واتجهت صوب الشاب ورمقته بنظرة ثم اتكأت على حافة المكتب ولم تتكلم •

وكان القمر يجللها ، وهي تتقلب في أضوائه كموجة كبيرة • وكان الصمت ثقيل الوطأة يأخذ بالمخنق ، فتحركت جوليا ومدت ذراعها وحاولت ان تقبض على يد ادغار ، وفي تلك اللحظة فاح منها عبير حاد : غمر كيان الشاب واذهله وأسكره وأشاع فيه شبه دوار ، فتراجع ولكنها تقدمت وفتحت ذراعيها وبكل ما فيها من قوى الحب الكامن الملتهب ، أرادت أن تضمه وتحتضنه •

وعندئذ ، عندئذ فقط تداعت بغتة ارادة الشاب • غشي الدم بصره ،

فقد اتزانه ، نسـي امرأته ، سحقته التجربة المفاجئة ، فتقدم هـو الآخر ، وبالرغم منه ، رفع ذراعيه وأوشك ان يعتنق المرأة ، ولكنه لـم يكد يلمس بدنها ويحس حرارته حتى جحظت عيناه واختلج وأفاق وجعل يلوح بيـده مشيرا اليها بالخروج ٠

أفاق ولكن التجربة ظلت أمامه فأراد ان يقصيها قبل فوات الوقت ، فدفع المرأة بكلتا يديه وصاح وهو كالمخبول قائلا : آه يا مجرمة ٠

غير ان الكفاح زادها تحديا وعزما ، فتعلقت بذراعه ، وأحس أنفاسها المتقدة تهب على وجهه ، فجن جنونه وتضاعف خوفه مـن نفسـه ٠ وتمثل امرأته ، وتذكر وعده ، وأشرف على الهاوية بعين بصيرته ، فاشتدت رغبته في الخلاص وانتهر المرأة وتملص منها ، ولكنها غافلته وعادت تتشبث بـه ، وحينئذ فقد صوابه ولم يعد يدري ما يفعـل ، وفـي حركـة يأس وحيرة وجنون ، امسك بعنقها وجعل يضغط حتى تهاوى الرأس وتراخى البـدن وسقطت المرأة على الارض جثة بلا حراك ٠ ولما ابصرها مسجاة في ضـوء القمر ، ارتعدت فرائصه وخولط في عقله فتركها حيث هـي وانطلق يعدو في الشارع كمعتوه حتى بلغ الدار التي يقطنها والده ، وهناك نادى امرأته، واختلى بها ، وفيما هو يقص عليها ما وقع، اطبقت عليه خادمة القتيلة فـي صحبة عدد من رجال الشرطة انتزعوه من بين ذراعي فرناند واقتادوه الـى السجن وهو صامت ذاهل واجم لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم كأنه قد صعق أو اصابه مس !

وحكم على ادغار بالسجن ثلاث سنوات ، كانت السنة الاخيرة أمرها واشقاها اذ هو لم يتلق فيها أي خطاب من زوجته ٠ وعندما استكمل مـدة السجن وخرج الى نور الحرية وبحث عن فرناند علم انها اصيبت بداء السل وماتت منذ شهرين في احدى المصحات ٠

فهرس المحتويات

المؤلف

١ ـ العلاقات المشتركة بين الرجل والمراة — مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٧١
الطبعة الثانية ١٩٧٣

٢ ـ دراسة في البيروقراطية السورية — دار دمشق للنشر ـ دمشق ١٩٧٢

٣ ـ اقتصاديات الذهب — دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٠

٤ ـ المرأة العربية بين التخلف والتحرر — دار الافاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠

تراجم

١ ـ اللصوص — تأليف فريدريك شيللر دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٢ ـ نفذت الطبعة

٢ ـ زواج الحب — تأليف ماري ستوبس مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٦٣ ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٤

٣ ـ هيلين — تأليف فيكي باوم مؤسسة النوري ـ دمشق ١٩٦٣ ـ نفذت الطبعة

٤ ـ في التربية — تأليف برتراندرسل دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٤ ـ نفذت الطبعة

٥ ـ الممارسة والنظرية البلشفية — تأليف برتراندرسل دار الانوار ـ بيروت ١٩٦٥ ـ نفذت الطبعة

٦ ـ مشاكل نمو الاطفال — تأليف ايمانويل ميلر دار الانوار ـ بيروت ١٩٦٦ ـ نفذت الطبعة

٧ ــ التربية والنظام الاجتماعي	تأليف برتراندرسل دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٦ ــ الطبعة الثانية ١٩٧٨
٨ ــ الصراع على سورية	تأليف باتريك سيل دار الانوار ــ بيروت ١٩٦٨ ــ الطبعة الثانية : دار الكلمة ــ بيروت ١٩٨٠
٩ ــ هل للانسان مستقبل	تأليف برتراندراسل دار دمشق للنشر ــ دمشق ١٩٦٩ ــ نفذت الطبعة
١٠ ــ اخلاقهم واخلاقنا	تأليف ليون تروتسكي وجون ديوي وجورج نوفاك دار دمشق للنشر ــ دمشق ١٩٦٩ الطبعة الثانية : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ١٩٨٠
١١ ــ علم النفس الديني	تأليف سرل بيروت ــ دار دمشق للنشر ــ دمشق ١٩٧٨ ــ نفذت الطبعة
١٢ ــ مثل عليا سياسية	تأليف برتراندرسل دار دمشق للنشر ــ دمشق ١٩٨٠
١٣ ــ معنى التحليل النفسي	تأليف ارنست جونز دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٨٠
١٤ ــ الفوز بالسعادة	تأليف برتراندرسل دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٨٠
١٥ ــ من القصص العالمي	تأليف تولستوي ، دوستوفسكي ، غوغول، شيللر ، جالزورذي ، بابيني ، توريه دار الافاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٠
١٦ ــ جزيرة الكنز	تأليف روبرت ستيفنسون دار الافاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٠

SELECTION OF WORLD STORIES

by

L. TOLSTOI, F. DOSTOYEVSKY,
N. GOGOL. F. SCHILLER.
J. GALSWORTHY. Etc...

Translated into Arabic bY
SAMIR ABDOH

Publisher
Dar - AL - AFAQ - AL - Jadida
Beirut – Lebanon